ميلونجا

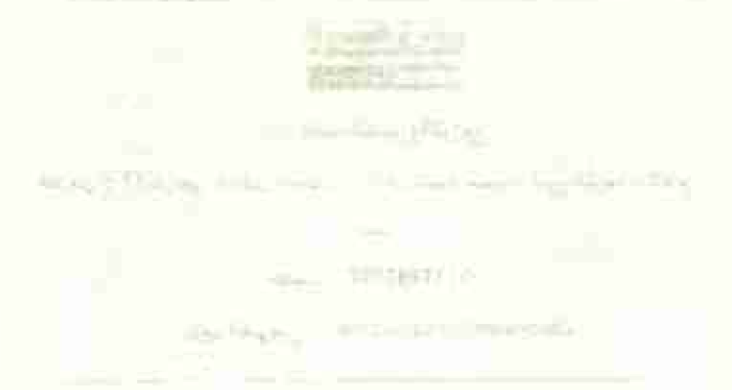
رواية

أحمد تاج



دار اكتب للنشر والتوزيع





ميلونجا

ميلونجا

أحمد تاج

الطبعة الأولى ، القاهرة 201 م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد رجب عواد

رقم الإيداع : 21920 /2018

I.S.B.N: 978-977-488-114-4



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

برولوج

31 ديسمبر 1989، منزل الأسرة بالدقي، آخر حفل رأس سنه حقيقي أتذكره بقوة.

القميص الثقيل الذي ارتديته مع بنطال الجينز (لم أتوقف عن ارتداء الجينز أو استبدله بالقماش بعدها قط) والجاكت الجلدي الأسود، وامتعاضي من ملبسي في مقابل الفيست والبنطال القماش الذي ارتداه حسين، ولكني لم أعبر عن امتعاضي في حينها، وحتى الآن.

ارتدت أختي فستانًا ورديًا منفوشًا كالأميرات. كان الكل منمقًا مرتديًا أفضل ما لديه. كل النساء مزينات الشعر، مكحلات العيون، مرتديات لفساتين سهرة منفوشة، وكل الرجال بالبذات المنمقة. لم يكن بيننا غريب، فقط أسرتنا تحتفل، ترقص، تغني، نستقبل العام الجديد ببهجة.

كان جدي (رحمه الله) متذوقًا للفن، مجيدًا لأصول الإتيكيت. لم يكن يراقص أيًا من بناته دون الأخرى، واحدة من زوجات أبنائه دون الأخرى. كان يدعو كل واحدة لرقصة، وتستقبل كل واحدة منهن الدعوة بفرح

وتقدير، انتظرت أنا أيضًا أن أراه يرقص على لحن معين لا أستطيع نسيانه أو إخراجه من رأسي من الأعوام السابقة.

كان الكل يرقص الـــ (سلو) بسلاسة وطبيعية بلا تصنع كالآخرين خارج دائرتنا، لكن جدي كانت له حركات التفاف لا تُنسى، ودقة شديدة في حركات قدميه روحة وجيئة. يغمض عينيه لثوانٍ في أثناء الاستماع للموسيقى كأنه يرشفها في لذة، ويتحرك دون أن يرى كأن ساقيه تملكان المكان باقتدار. ذراعاه تحركان من يراقصها دون دفع او حدة كأنه يترك الموسيقى لتقودهما، ويحرك هو الدفة فقط.

قرر عماد في النهاية أن يعزف لحني المفضّل، كان ذلك هو ميعاد دعوة والدتي إلى مراقصة جدي.. يومها قمت بالعد مبهورًا من حركاهما.. عددت الخطوات وحاولت تقليدها،ونجحت..راقصت أختي وبنات خالاتي وأخوالي.

ظللت أرقص مع الكبار طوال الليل.. يومها عرفت أن عدد الخطوات الراقصة تجعل من الحركة رقصة مميزة (تانجو) وأن اسم المقطوعة هو (بيساميه موتشو).. من يومها لم أفكر قط في التوقف عن الرقص.. أو في الاستماع إلى بيساميه موتشو ودندنة لحنها في خيالي.. كان كل أملي أن أحفظ كلماها كي أُغنّيها في العام المقبل.. حفظت كلماها بالإسبانية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية.. لكننا لم نُقم حفل رأس سنة كذلك مجددًا.. تعدّدت الحفلات العادية.. أعياد ميلاد ونجاح وخطوبة وزيجات، وتعدَّد الراقصون ممن دخلوا إلى عائلتنا بالنسب والمصاهرة، وتعدّدت

الرقصات، ولكن لم يكن لها ذات الطعم مطلقًا، وظللت منتظرًا أن أغني بيساميه موتشو مع عزف خالي عماد ما لم يحدث قط.

لذكرى جدي الخالدة وروحه وكلماته التي ما زالت تظللني..

ولأمي العزيزة أول قارئة ومعلمة وحبيبة.

***

(1)

كُثرٌ هم من أرادوا عبور السور القصير الذي يفصل بين الفيلا العتيقة على كورنيش الزمالك والشارع، وقلّة هم من حظوا بفرصة عبوره إلى العالم الرحب المختلف كلية بداخلة عما دونه.

تتهادى الموسيقى في السبت الثاني من كل شهر يسمعها المارة، ويحاول العابرون استراق النظرات إلى عمق الحديقة لمن بالداخل يعزف أو يستمع إلى تلك الإبداعات غير الاعتيادية، وكثيرًا ما دارت الشجارات والصدمات بين شباب الـ " نوفو ريش" المحاولين اختراق البوابة فقط لصدح الموسيقى واسم "مرجوشي دانس هاوس" المعلق بالنيوين الهادئ على الباب وبين أمن المكان الذين يمنعوهم العبور.

ظل "المرجوشي دانس هاوس" مقصد قلة قليلة مختارة بعناية يزورونه نهارًا كل الأيام ويُقام لهم حفل وحيد في السبت الثاني من كل شهر.. أثار المكان التساؤل والحيرة ورغبات رجال مباحث الآداب العامة ومكافحة المخدرات في إيجاد أي ما يشوبه.. نوعية زوار المكان خصوصًا في الليالي الموعودة كانت دائمًا ما تثير الدهشة وجبة شهية للعيون.

تلك الوجبة التهمتها مرتين في أثناء محاولاتي الدؤوبة في الوصول إلى الـ مرجوشي ذاته، فريد المرجوشي الشهير بفريدي.

مكالمات هاتفية، ومحاولات عبر سكرتيرته الوحيدة في أخذ موعد، ومراقبة تليها محاولات لقاء "مصادفة" قد أحظى فيها بحوار صحفي مع فريدي مرجوشي باءت كلها بالفشل.

لا أدّعي أني صحفي استقصائي من النوع الذي ينتظر الحدث كي يستقصي ويكتب عنه، ربما وجب عليَّ في بعض الأحيان أن أصنع أنا الحدث، وقد صنعته الآن، وأنا أوثّق الواقعة في كتاب، فانا لا أخجل من قول ذلك، كنت لأنكر الأمر لو أنه توقّف عند مجرد مقال بجريدتي، ولكن الآن، وهو في يديك وتحت ناظريك بين ضفتي كتاب فعليَّ الاعتراف أنني أنا من أبلغَ الشرطة عن الأعمال المنافية للآداب التي تجري خلف أسوار "مرجوشي دانس هاوس". أنا من أعطى الشرطة الذريعة للدخول.

صحيح أنهم لم يجدوا شيئًا للتعليق عليه لكنهم أوجدوا لي مدخلًا لفريدي مرجوشي ذاته، لم يتطلب الأمر أكثر من عنوان صحفي كبير على البوابة الإلكترونية للجريدة (القبض على فريد المرجوشي واتهامه بإدارة شبكة أعمال منافية للآداب)..

توقّف الزوار النهاريون، ولم يُقم الحفل الشهري لمرتين على التوالي..

انتظرت أنا الآخر في تؤدة، وقبل ميعاد الحفل في الشهر الثالث تحديدًا في أول أيام شهر يوليو قمت بأول اتصال بسكرتيرته ذات اللكنة

الأجنبية. في البداية رفضت فكرة إيصالي بـــ "مسيو فريدي"، لكن بعد إلحاح وشرح مفصّل لها عن أهمية مقابلته لإزالة اللغط، والإشاعات عن نادي الرقص الخاصة به، وكتابة مقال صحفي عنه، وافقت في النهاية على ان تحاول إقناع مسيو فريدي ومن ثم الرجوع إليّ بميعاد إن وافق هو.

مضى يومان قبل أن تتصل هي لتُحدّد لي موعد لتخبرني أنه سيكون في اليوم التالي على الاتصال. أكدت أنه سيكون قصيرًا ومقتضبًا.

***

اقتنصت الفرصة في حبور وذهبت.

كان صباحًا بهيجًا بحق وكأن المناخ الصيفي ليوليو قرّر مهادنتي إحتفالًا بنجاحي في اختراق أسوار المرجوشي دانس هاوس لأول مرة، وربما أكون أنا أول غريب عن المكان يتاح له زيارته. ترجّلت عن سيارة الأجرة في الموعد، ولعجبي كانت السكرتيرة تنتظرني على الباب. حسنًا عليكم معرفة أن هذا الأسلوب غير مُتبع في مصر.. أنا لم أقم بزيارة عمل قط لأجد من يستقبلني على البوابة الخارجية كضيف لكن اعتقادي الأقوى هو أن السكرتيرة الحسناء كانت تريد التأكّد أنني أتيتُ وحيدًا، أدخل وحيدًا وأخرج وحيدًا.. تريد تقييمي قبل الدخول أيضًا. كان هذا واضحًا على نظرتها المتفحصة التي دفعتها لخلع نظارتها الشمسية لتجول بعينيها في مظهري العام.

عليك أن تعرف أن أبسط الأشياء العادية تبدو غريبة جدًا حين يتعلق الأمر بمرجوشي دانس هاوس.. كيف؟.. دعني أحكِ لك.

ما إن صرت مواجهًا لها لا يفصلني عنها سوى سنتيمترات قليلة حتى ارتدت نظارتها مجددًا لتداري بها عينيها الزرقاوتين. كانت ترتدي فستانًا زهريًا يحمل طابعًا وموديلًا قديمًا ربما هو من الخمسينيات بشعر أشقر زاهٍ قصير أراهن أنها استنفدت الكثير من الوقت لتجعيده على هذا النحو مع فارق جانبي حدّدته بتوكة شعر زهرية على شكل فراشة.

حسنًا، أنت لا ترى نساء في مصر في الألفية الثانية يرتدين الفساتين القصيرة بشعور شقراء مع خلفية بوابة حديقة.. تلك هي الغرابة التي أحكي لكم عنها..كنت أشعر أنني أقترب من الدخول إلى فيلم ملون قديم لمخرج أمريكي كلاسيكي.

– بون جور.. مسيو عاطف؟

سألت في ترحاب آلي.

أجبتها بابتسامة، ومددت يدي ففاجأتني بمد أطراف أصابعها البيضاء تصل لحد الشفافية حتى أنني أراهن أنني لمحت من تحتها عروقها النابضة لتؤكد صورة الفيلم الأمريكي القديم في مخيّلتي.

– استريد كهالو.. ممكن تناديني استير.. مسيو فريدي منتظرك، اتفضل.

عبرت معها البوابة، حسنًا، لم تكن الحديقة مبهرة كما اعتقدت، ولكن لفت انتباهي وجود شجيرات عدة ذات مظهر غير اعتيادي. بالتأكيد قد قام هو باستيراد تلك الأشجار من الخارج.. الحديقة ليست بها النخلة المعتادة والأكاسيا المنتشرة في حدائقنا.. شعرت للحظة أنني في حديقة الأورمان خصوصًا مع وجود النافورة الصغيرة، وتمثال كيوبيد الموضوع على ما يبدو في مكانه الخاطيء الذي لم يحاول أصحاب المكان مُداراة عورته، كما اعتدنا أن نفعل بالتماثيل المُقلّدة في مصر.

سألتني إن كنت أُفضّل الانتظار في الحديقة أم بالداخل فأجبتها باقتضاب باسم أنني أُفضّل الانتظار حيث سأُجري الحديث الصحفي، وأُفضّل أن يكون مكانًا مُكيّفًا؛ لأن يوليو لن يحنو علينا أكثر من ذلك، وقد دنت العاشرة صباحًا.

فابتسمت، وقادتني للداخل.

الباحة الداخلية للمدرسة كانت شبه خاوية إلا من طاولة دائرية كبيرة وُضعت على الأرضية الباركيه بلا سجاد ورُفع فوقها تمثال صغير لراقصي تانجو يتعانقان. كانت الطاولة تحجز المدخل عن باقي الباحة الواسعة التي تركت خاوية تمامًا فيما عدا كنبتين عريضتين وُضعتا على يمين، ويسار مساحة الصالة بينما فُتح البلكون على مصراعيه في المواجه يُداري بستارته البيضاء الشفافة إخضرار مشهد الحديقة الخلفية. على أقصى اليمين كان هناك سلم دائري خشبي يقود للطابق الثاني، وعلى اليسار باب وحيد خشبي به نوافذ زجاجية معتمة.

قادتني عبر باب الحجرة مبتسمة وشارحة.

– الدور العلوي مكان إقامة مسيو فريدي.. لكن المكتب هنا.

من باب المكتب عبرت لأجد الحجرة، ليست حجرة اعتيادية كما اعتقدت، كانت حجرة صغيرة جدًا بها مكتب أظنُّ انه لاستريد حوائطها تم تجليدها جميعًا بخشب الماهوجني، وفي منتصف الحجرة تمامًا خلف كرسي المكتب كانت هناك بوابة أخرى تؤدّي إلى مكتب فريد المرجوشي ذاته، وكأنهم اختاروا مكان المكتب كي يستحيل العبور إلى المرجوشي إلا عبر استريد، وكأنها حارس الأمن لا السكرتيرة..

عبرنا المساحة الضيقة وولجنا إلى المساحة الواسعة لمكتب المرجوشي.

كان له ذات الديكور من التجليد بخشب الماهوجني يُقابل الباب مكتبًا عريضًا خشبيًّا فخمًا يقبع خلفه كرسي دوار عتيق من الجلد الأخضر الباهت. كانت الكتب تُغطّي الحوائط فيما عدا الحائط في ناحية الحديقة حيث امتدت نافذتان كبيرتان توسطهما مدفئة حجرية قديمة، وفوقها لوحة كبيرة لراقصي تانجو يماثلان التمثال الموضوع في المدخل. على الحائط المقابل، وبين الكتب عُلقت لوحة زيتية أخرى بها رجل تظهر عليه معالم الثراء بطربوشه الأحمر وعصاه العاجي يقف بينما جلست إلى جانبه سيدة أنيقة في فستان أخضر وإلى جوارهم طفل مُهندم ذو شعر أشقر وشورت قصير.

بعد أن تأكّدت أنني حفظت بعيني كل تفاصيل الحجرة متوقفًا عند اللوحة.

– دي صورة مرجوشي باشا الكبير.. الطفل الصغير ده يبقى والد فريدي.

ابتسمت ابتسامة الحقد الطبقي العتيدة التي دائمًا ما تقف بين عدم المبالاة، ومحاولة التقليل من حفاظ تلك الطبقة من البشر على معالم الثراء الزائلة.

دون كلمات جلست على الكرسي الغير مريح أمام المكتب وتطلّعت إليها.

– الأستاذ فريد هيتأخر؟

– لا أبدًا هو نازل أهه.. تشرب إيه؟

– أي حاجة مش هتفرق.

لم يعجبها ردي، ولكنها تقبّلته على مضض، وذهبت تجاه الباب، وكأنها تذكّرت شيئًا مُهمًّا استدارت نحوي في آخر لحظة:

– على فكرة.. الحاجات البسيطة زي الأكل والشرب.. المزاج فيها بيحدّد نوع الشخصية.. الناس اللي مبيفرقش معاها تشرب إيه.. بتبقى ناس..

صمتت متطلعة للسقف، وكأنها تبحث عن كلمة:

- مش أصليين، وانت هتقابل حد أصلي قوي.. آخر فرصة.. تحب تشرب حاجة معينة؟

لا أعلم هل كنت على صواب في تلقي كلمتها كنوع من الإهانة غير عابيء بصحة وجهة نظرها أم لا، ولكني قررت أن أُجيب برد متصنّع كنظرتي الساخرة:

- أوكيه.. حلبه حصى.. عندكوا حلبة حصى؟!

ربما لم تفهم سخريتي، وربما كانت تعمل على تأكيد وجهة نظرها فابتسمت مجيبة:

- تمام.. حلبة حصى is a good choic .. دقايق ومسيو مرجوشي هيكون معاك.

خرجت مُبتسمة، وأغلقت الباب خلفها مما أعطاني فرصة ووقتًا جيدين لاستخراج أدواتي من حقيبة ظهري.. هاتفًا نقالًا قديمًا أستخدمه كمُسجّل صوت، ودفترًا صغيرًا، وقلمًا أكتب بهما ملاحظاتي، وبدأت بالفعل في تسجيل أول ملف صوت أصف فيه المكتب الذي وصفته لكم سلفًا منذ قليل.

دقيقة وسمعت طرقات الباب..

***

(2)

اعتقدت لوهلة أنه سفرجي الأنواع العربية القديمة هو من يطرق الباب آتيًا بعربة الشاي، ولكنني فوجئت برجل ستيني طويل القامة يرتدي بنطالًا أسود وقميصًا أبيض وقد زين رقبته بمنديل زهري يداري به فتحة قميصه العريض، بالتأكيد هو فريد المرجوشي.. أي نوع من التأدب هو ذلك الذي يدعو رجلًا للطرق على باب حجرة مكتبه في منزله للدخول لمجرد أن هناك من هو جالس بها بالداخل؟ حسنًا، هو يقتبس مظهر أحمد مظهر في فيلم الأيدي الناعمة.. بالتأكيد لم يعد هناك من يلبسون بتلك الطريقة الآن.. لما لم أقتنع أنه حقيقي؟.. لا أدري، ولكن على كل حال فإن مظهره كان متناسبًا جدًا مع ديكور الحجرة وملابس "استريد" السكرتيرة..

قمت محييًا الرجل، ولكنه ابتسم غير عابيء بيدي التي امتدت نحوه وعوضًا عن ذلك أشار إليّ بيده، وكأنه يتباسط مع "ابن الجانيني" أن أجلس بشكل تكراري دون أن ينطق. التف حول مكتبه، وجلس في هدوء مبتسمًا في صمت لم أعرف إن كان يحاول أن يُقيّم مظهري خلاله هو أيضًا أم أنه ينتظر مني أنا أن أبدأ الحديث.

- سعيد أني أخيرًا قابلت حضرتك أستاذ فريد.. أنا عاطف سلامة.. صحفي في جريدة الأسبوع، وكنت اتصلت..

- تشرّفنا.

قاطعني فأجفلت، وأتمم هو:

- فريد المرجوشي.

قالها مادًّا يده عبر المكتب ولالتقاطها كان عليَّ القيام مما أثار غضبي أنه تعمّد أن يحييني جالسًا بينما أقف أنا، وفهمت عندها لما رفض تحيتي حين دخل.

- أؤمر.

- زي ما شرحت للآنسة "استريد" إحنا محتاجين نعمل ريبورتاج عن المكان خصوصًا بعد الكلام الوحش اللي اتكتب عنه في الجرايد، وندي فرصة للناس إنها تعرف أكتر عن "فريد المرجوشي"، و"مرجوشي دانس هاوس" علشان نحاول نحسّن سمعة المكان ونرجعّله صورته القديمة.

- أستاذ عاطف.. حضرتك غبي، ولاّ فاكرني غبي؟!

من جديد أجفلت وألجمني سؤاله الاستنكاري.

- أكيد "استير" بعد مكالمة التليفون راجعت المقال اللي اتكتب عن الحادثة، واللي اسمك كان منوّر فوقه.. يعني انت اللي سوّأت سمعة المكان من كام شهر.. السؤال يا ترى ليه انت اللي عايز ترجع وتحسّن صورته؟!

- علشان.. علشان..

- علشان انت اللي عملت البلاغ الكيدي؟ ممكن اعرف ليه؟

لم أجد بُدًا من الاعتراف

- علشان.. علشان أوصل لحضرتك.

- ولاّ علشان تنتقم لأني رفضت أقابلك قبل كده؟

- أفهم من كده إن حضرتك استجبت المرة دي خايف لاعمل حاجه تانية؟!

- أعتبر ده اعتراف؟

- أعتبر ده اعتراف أنا كمان؟

ابتسم تلك المرة في راحة، بينما تمادى إلى مسامعنا صوت عربة الشاي بعد طرقة خفيفة.. كانت "استريد" من يجرّها وعليها وضع طاقم شاي صيني.

كان مشروبي المفضل مصبوبًا بالفعل في فنجان واسع الحلقة مزيّن بالأزهار وصورة لفتاة رومانية عارية، قدّمته لي بعد أن سألتني عن عدد معالق السكر التي أريدها، ثم صبَّت الشاي من الإبريق الغالي. حاولت أن أكون ظريفًا للحظة:

- طبعا ده شاي إنجليزي أصلي؟

- إيرل جراي.

قالها ساخرًا من سخريتي في اقتضاب، حسنًا:

- أنا بلوريتاري جدًا.

خرجت "استريد" بعد أن ابتسمت لكلينا، وودت أن أقول لها: آسف أنا بكره الحلبة الحصى. لكني أبيت أن تنتصر هي..

رشفت منها قبل أن يبدأ هو حديثه مجددًا.

- اوك.. عاوز تعرف إيه يا أستاذ عاطف؟

- خلّينا نبدأ بحضرتك.. عرّفنا بيك.

قلتها وأدرت زر التشغيل في مُسجّل الصوت، ابتسم هو ابتسامة لم تستغرق ثانية ناظرًا إلى الفراغ، وكأنه مُستفَز من السؤال المُكرّر:

- فريد حامد المرجوشي.. جدي فريد باشا الكبير كان إقطاعي واتأمّمت أغلب ثروته.. اللي اترد منها كفّانا للنهارده..خريج قانون جامعة السوربون سنة 77.

- ده المرجوشي باشا؟

نظر إليّ نظرة تحمل جملة وحيده في طياتها.. انت غبي وجاهل.

- أنا..المرجوشي الكبير توفي سنة 56..كنت بشتغل بالمحاماة والتحكيم الدولي لفترة، وتقاعدت بشكل اختياري، أختي الكبيرة عايشه في باريس ومعاها ولادها وولادي، ومبيجوش مصر.. مراتي اتوفّت من 8 سنين.. في عز ثورة يناير، ومعرفتش أعملّها عزا لائق..

- حسنًا، ابتلعت خطأي الأول، وحاولت أن أندمج في الريبورتاج:

- إيه اللي يخلّي محامي مرموق، وابن عيلة كبيرة يفتح نادي ليلي؟!

حسنًا على ما يبدو أن ذلك كان خطأي الثاني حيث علت نبرته قليلًا، وأنا كنت أحاول الحفاظ على هدوئه.

- أولًا.. مين قالّك إني كنت محامي مرموق.. إنت سمعت إسم فريد المرجوشي المحامي قبل كده؟ ثانيًا إيه نادي ليلي دي.. شايفني حاطط إعلان مطرب، ورقّاصة على الباب؟ "مرجوشي دانس هاوس" مدرسة رقص قاعات محترمة، ومُعتمدة دوليًّا.

- آسف للخلط..بس حضرتك مجاوبتش على السؤال، وممكن برضه من الإجابة ندخل على مدخل كويس إنك تشرحلنا يعني إيه "مرجوشي دانس هاوس" مدرسة رقص قاعات؟

أومأ برأسه كأنه يعذر جهلي الشديد، ويوافق على الإجابة.

- سبت المحاماة علشان!!! تخصّصي كان في التحكيم الدولي التجاري، الشغل ده بيتطلب حاجات كتير تمشي من تحت الترابيزه.. أنا مبحبش ده، ولما لقيت نفسي مش قادر استحمل.. سبته.. ليه دانس هاوس؟!!!.. لأنه مش بيتعارض مع قيمي الشخصية، رقص القاعات مالوش علاقة بهز البطن يا صديقي.. رقص القاعات هو نوع من أنواع الرقص الزوجي اللي انتوا بتشوفوها في التلفزيون،وبتحاولوا تقلدوها..شيء راقي جدًا وحسّي وعاطفي في نفس الوقت.

همهمت بالموافقة غير متأكّد إن كنت فهمت ما يقول:

- آه تانجو.. زي فيلم "السلم والتعبان".

قلتُها هازًّا ذراعي في وضعية التانجو التي أحفظها من مشاهداتي، لكنه لم يفهم قصدي بذكر فيلم "السلم والتعبان".

- مش التانجو بس..التانجو والبوسو دوبليه والفالس والسامبا والرومبا وفوكس تروت والايريش دانس وغيره وغيره.

أومأت موافقًا.

- ومين زباين المدرسة؟

من جديد استشعرت الخطأ قبل أن أرى نظرته حتى.

- طلبة..طلبة المدرسة من كل الفئات تقريبًا..متلناش أي restrict[1] على نوعية الطلبة،الريستريكت الوحيد بيبقى على حضور الميلونجا الشهرية.

- الـ إيه يا فندم؟

- الحفل الشهري الراقص.

- آه ما هو ده كان سؤال اللي جاي.. ايه بقى الميلونجا دي؟

تبسّم تلك المرة ابتسامة واسعة مُتطلعًا عبر النافذة إلى الخارج، وكأنه يصف حلمًا جميلًا يتراءى لعينيه.

---

[1]- قيود

- الجنه.. ميلونجا دي المكان اللي مُمكن تدخله بحزمه من المشاعر الجميلة، وتطلع منه بحزمة تانية من مشاعر أجمل.. دي حفله بتتعمل للتانجو بس تجمُّع لرقص التانجو..

اعتدل كأنه استفاق من حلمه ليكمل بشكل أكثر جدية.

- علشان كده مبيجيهاش غير الطلبه المميزين.. سواء طلبه جداد أو خريجين قدام.. لازم تتوافر فيهم شروط الحضور.

- اللي هي؟

- يكون بيحب التانجو، دخل مسابقة دولية واحدة على الأقل، ويكون راقص بارع طبعًا.

- انتوا بتدخلوا مسابقات دولية.

- إحنا واحدة من المدارس العشرة الأوائل على مستوى العالم.. الحاجه اللي بعدانا عن المراكز الخمسة الأولى هو عدد الخريجين، وعدد المحترفين اللي اتخرّجوا من عندنا.. مع الأسف، مفيش حد من عندي قرّر يحترف الرقص رغم إن جالهم عروض عالميه.. لكن بيخافوا من الوصمة المجتمعية المتخلفة إنهم يتقال عليهم رقاص أو رقاصة.. لكن إحنا بتجيلنا عروض المشاركات من الأرجنتين وفرنسا وألمانيا والنمسا.. المدرسة فازت لمصر بجوايز عالميه كتير..بس محدش بيهتم

لم أستطع منع البلوريتاري الساخر من الظهور.

– طبعًا طبعًا.. إزاي يتجاهلوا إنجازكم، ورفع اسم مصر عاليًا بين الرقاصين.

– هو ده بالظبط اللي أقصده بالوصمة المجتمعية المتخلفة..اشرب الحلبة قبل ما تبرد.

حسنًا ربط الحلبة الحصى بالمتخلف في جملة واحدة، كان يرد تهكمي بإهانة كبيرة.

– معلش يعني بس لو حضرتك شايف إن الدولة بتتجاهل إنجاز شوية ناس فاضيه رايحة ترقص فده اعذرني في بلد زي بلدنا بمشاكلها واقتصادها وحالتها السياسية.. دي رفاهية تقارب السفه.

قلتها متخيلًا مظهر لوسي ابن طنط فكيهة الحاصل على دكتوراه في الرقص في فيلم "إشاعة حب".

– هرجع برضو لموضوع التخلُّف اللي قولتلك عليه.. مين قال إننا بنسأل رغيف العيش ولا الرقص؟ الحرية ولا تربية الحيوان؟ الديموقراطية ولا حقوق الستات؟.. الواقع يا صديقي إنكوا انتوا اللي بتربطوا حاجات مالهاش دعوة ببعض، وتقارنوها، وتحطّوها في سلم أولويات غير منطقي.. العيش والحرية والعدالة الاجتماعية.. ممكن جدًّا تيجي جنبًا إلى جنب مع تمكين المرأة والرفق بالحيوان والسمو الروحي اللي بيعمله الفن.

– والرقص فن؟

– لو الرقص مش فن.. يبقى الحوار ده مالوش لازمة.

قالها منتفضًا من كرسيه في هدوء سطحي يطوي خلفه حنق شديد عاصف.

– آسف يا مسيو فريدي..بس أنا لازم أكون مناقض لأفكارك علشان أقدر أطلّع المعلومة اللي ممكن تهم القارىء.

داريت حجتي الواهية بتعمد ذكري للفظ "مسيو" مع اسم التدليل فريدي وكان لقراري أثر السحر.. حيث هدأ وجلس مجددًا.

- آه l'avocat de diable[2] تمام.. هنلعب لعبة محامي الشيطان.. لطيف..

كشيطان هنا تراءت لي فكرة مجنونة، وفريدة من نوعها، ولا أخفيكم سرًا أن تلك الفكرة كانت أول مرحلة في تحويل قراري من كتابة مقال إلى كتابة كتاب كامل.

– إيه رأيك؟ أنا جاتلي فكرة.

– اتفضل.

– انت بتقول إن الحدث الرئيسي، والحاجة اللي جابت جوايز، ومش أي حد بيشترك فيها و و و هي الـــ.. اللي حضرتك قولت عليها دي.

– ميلونجا.

---

[2]– محامي الشيطان.

- بالظبط..إيه رأيك تشرح لي.. اعتبرني طالب في المدرسة.. بتشرح لي تانجو، وبتشرح لي إيه هي الميلونجا؟!

ابتسم فريد المرجوشي ابتسامة صغيرة لم تلبث أن اتسعت مع ميل رأسه كأنه يعجب بالفكرة.. كانت الفكرة تروق له..

- لطيف.. حقيقي.. لطيف.. تحب تبدأ إمتى؟!

- دلوقتي لو حبيت..

- لا..بكره زي دلوقتي.

***

3

كأستاذ جامعي وقف أمام لوحة بيضاء، وبيده قلم بينما جلست أنا، و"استريد" على كرسيين قصيرين في الباحة الواسعة للفيلا، وبيننا طاولة صغيرة عليها كوبا ليمونادة.

توجّه إلى الطاولة الأخرى التي وضع عليها جهاز **CD player** وقام بتشغيل قطعة موسيقية هادئة، ومن ثم بدأ حديثه مؤكّدًا على مظهر الأستاذ.. حاولت أن أتابع بالكتابة، ولكني ورغمًا عني تابعت بشغف لا أعلم متى تسلل إلى قلبي.

- أصول موسيقى التانجو، وحركاتها الراقصة اللي من غير رتم، وأصلها دمج ذكي بين الموسيقى النقرية الأفريقية، واللي جه بيها العبيد لأمريكا اللاتينية مع تناغم موسيقى الآلات الوترية وآلات النفخ الأوروبية.. لكن حركاتها جايّه من رقصات أوروبية أقدم مدموجة مع العنف الحركي للرقص التقليدي الأفريقي، بعض المصادر بتعيد وتريات التانجو الأوروبية وتركيب نقراته إلى أصول شمال أفريقية وأندلسية

بالتحديد كون تركيبة اللحن موجوده في موشحات أندلسية زي (يا غصن نقا مكلل بالذهب).

إلى جانب اشتراكه في النقرات المعروفة لــ الفلامنكو الإسباني.

قالها بينما نقش على اللوحة نوتات موسيقية عدة.. وددت لو كنت على علم بمعانٍ نوتات السلم الموسيقي كي أنقلها إليكم، في النهاية أشار إلى "استريد" التي قامت، ودعتني للقيام.

ترّددت للحظة إلا أنها ابتسمت ابتسامة ودودًا كأنها تشركني في تجربة علمية جديدة فقمت مبتسمًا في بلاهة بينما وضعت هي يديها حول رقبتي، وقادت يدي حول خصرها، لا أعلم لما لم أستشعر الإثارة بينما أنا أقترب محتضنًا إياها، ربما هي الحماسة أو الخجل لكن ما أدركه أنني لم أنتبه كليًّا إلى احتضاني لشقراء أجنبية في لحظتها كما أنا مُنتبه الآن لتلك الفرصة الضائعة!

بدأت تتحرّك، وتُحرّكني معها بينما أتمم هو محاضرته.

- نقرات التانجو المعروفة، واللي بتحدد حركات الرقص بتتباين بين $^2/_4$ و $^4/_4$ وبتغيّر العدّات بعد كل مازورة لمازورتين موسيقيتين.

عاد إلى الجانب الذي رسم فيها رموز السلم الموسيقي معتقدًا أني أدرك ما يقوله، وسايرته أنا دون أن أهتم لضرورة الفهم.

- أوضاع التانجو المعروفة هي (سيريدو آسيريدو) يعني الحضن.. التقارب بكامل الجسد.

تقاربت مني حتى استشعرت أنفاسها على وجهي، وشعرت بساقيها تلامسان ساقيَّ، وتتحركان عنهما كوني وقفت كالصنم غير قادر على التحرك جيئة وروحة في مجال خطوة كما فعلت هي.

- (سيريدو آ ابيرتو) وفيها يكون الحضن بالنصف العلوي من الجسد، وبتكون حركات الرجلين في وضع المرآية.

ابتعدت بجذعها عني، ومن ثم داست بعنف على حذائي الذي قضيت أغلب الصباح في تلميعه منبهة إياي إلى ضرورة تحريكه، حنيت رأسي إلى الأسفل محاولًا متابعة حركة ساقها السريعة إلى الأمام.. نصف دورة.. إلى الخلف..نصف خطوة أخرى..عودة..كيف تفعلها؟! أوقفني هو عن المتابعة حين رفع رأسي ووجهها نحوه قائلًا:

- وأخيرًا (ابيرتو آ سيريدو) الرجلين حرة بتتحرك بالتناسق مع ابتعاد النصف العلوي لتحت أو لفوق بشكل أفقي.

عند هذه النقطة كانت تتباعد، وتتقارب عني، ومن ثم بدأت في الهبوط بثني ركبتيها، وأن حافظت على اتصالنا بالأيدي، وتلتف حولي لا أعلم إن كانت تماثل في حركتها فراشة تطير في الجو أو ثعبانًا يزحف فوق جسدي..كأنها تعلم ما سيقوله لاحقًا.

- رقص التانجو بيعتمد بشكل كبير على علم الحركة الفزيائية.. الراقصين بيتعمدوا اللف على محور بيكون في الغالب رجل الراقص اليمين، أو محورين هم الرجل اليمين للراقص والراقصة..حركات الأيدين في الرقص على محورين بتميل لكونها تعبيرية بتعبر عن حالة، ومعنى الرقصة خصوصًا في التانجو الاستعراضي والتانجو أرجنتينو.

هنا اعتدلت "استريد"، وتركتني إلى مقعدها فلم أجد بُدًّا من الرجوع أنا أيضًا،ونظر هو نحوي كأنه يستجدي السؤال الذي لم يعطني الفرصة لسؤاله إياه بينما انهمك في الشرح وسألته بالفعل:

- ليه التانجو؟ إيه المميز في التانجو؟

- كل ده ومشفتش تميز؟ لو حبينا نلخص الحب.. الراجل والست والعلاقة بينهم..كل المعاني العميقة هتدخل القاموس تحت لفظ واحد "تانجو" التانجو بيمثل حاجات كثيرة ومختلفة باختلاف الناس نفسهم.

للراجل التانجو هو روح القيادة وللست التانجو هو روح التناغم.

للمقدمين هو الجرأة وللمحبين هو التفاني.

للنرجسيين الاستعراض وللمجموعات المشاركة.

للمهنين وظيفة جميلة مرهقة وللهواة شغف شديد.

للطبيعين هو موضع قوة جنسية للرجل والمرأة وللشواذ... مش أكثر من أداء محايد للطبيعة.

للميلونجيين3 هو أسلوب حياة وللأغراب هو مجرد رقصة.

وللأرجنتينيين والبارجويين هو ثقافة عميقة الجذور.

اعتدل في وقفته كأنما هو على وشك أن يخبرني بحكمة الكون.. تلاها كجزء من نص مقدس يحفظه عن ظهر قلب:

– كل منا يفهم التانجو بشكل مختلف.. كل منا يرى التانجو بعمق مغاير.. كل منا إما يرقصه أو يود حقًا لو يرقصه، إما أن يشعر مشاعر التانجو أو يود حقًا لو يستطيع شعوره، والتعبير عنه بقوة العاطفة الكامنة به.

اعتدل من جديد وعاد للعامية:

– فلسفة التانجو مليانه قضايا بتخلينا مختلفين..أو يمكن هي اللي بتقرّبنا من بعضنا جدًا..بتخلّينا مُتلاحمين..التانجو بيقولنا قصص وعبر عن العاطفة، أسئلة كثيرة، ولكل واحد منها إجابات كثيرة، كل راقص من حقه يحتفظ بآرائه الخاصة.. بس..لما يُملك الجرأة للتعبير عنها في رقصته الخاصة.

في تلك المرحلة كنت بالفعل قد استشعرت إعجابًا شديدًا ليس بالتانجو ذاته فأنا لم أكن قد فهمته بعد، ولكن بتفانيه فيما يحب خصوصًا حين يتحوّل للفصحى في مواضع منتقاة كأنه يجلّلها لغويًا ليضع أيدينا على سر محبته لذلك النوع من الرقص.

---

[3]– راقصو تجمعات الميلونجا – حلبات رقص التانجو.

في هدوء اقترب منا، فقامت "استريد" مُفسحة له المجال ليجلس في مكانها، وقامت هي تقدم كوبي الليمونادة لكلينا، نظر لي نظرة متسائلة:

– فهمت؟

فاتسعت ابتسامة البلاهة فوق وجهي..ابتسامة (سعدت أي نعم.. فهمت!لا).

خرجت "استريد" عن الصالة، وتركتنا متوجّهة إلى المكتب،وابتسم هو تجاهي متممًا:

– الموضوع يا عزيزي مش مجرد راجل وست بيرقصو ويقربو من بعض بشكل (إيروتيك).. الموضوع في القصة والقضية ورا كل رقصه.. في كل مره راجل بياخد ست، ويقودها لحلبة الرقص بيعيد فيها ْحساس وتمثيل شعوره، وبتعيد هي مشاعرها وتجتر ذكرياتها فيها.. الحب، الكره، الخيانة، الألم، عندك فرصه تعيش مشاعرك وتعبر عنها من غير بكا.. من غير وجع..من غير ناس تقيمها وتعبر عنها..لأنهم هيقيموا الحركه ورا الشعور.. لكن عمرهم ما هينصبولك محكمه لمشاعرك.

صدّقوني،رغم سعادتي بالعرض وبتعاون "فريدي مرجوشي" معي، ومحاولتي الجادة للفهم إلا أنني لم أستطع ربط ما يقوله بما قامت هي به بما شرحه هو سلفًا، هززت رأسي هزة بسيطة، وخرجت عني زفرة قصيرة تشبه زفرات الأفراس في الصقيع. كان ردي غير مهذب وغير (شيك)،

لكني لم أتعمده كما فعلت سابقًا..كان رد فعلي الطبيعي؛ ولذا تراه لم يستاء، وأن تراجع برأسه ورقبته للخلف عند سماع زفرتي في تأفف لحظي تابعه بابتسامة أب يشفق على ولده الذي لا يستطيع الاتزان على الدراجة بعد.

عادت "استريد"، ومعها رزمة أوراق موضوعة في ملف شفاف.. لم تكن أوراقا كثيرة، أتت بها ووضعتها على الطاولة بيني وبين "فريدي" قبل أن تقف خلفه واضعه يديها على كتفيه، كانت الأوراق زرقاء مكتوبًا عليها بخط اليد بقلم حبر جعل أيًا ما كان مكتوبًا قطعة فنية وتزينت أطراف الورق برسومات طفولية لأزهار.. أعطاني الملف تصورًا عن خطابات عشاق العشرينيات الذين اعتادوا تبادل الخطابات الملونة.

– زوّار الميلونجا، والطلبة المميزين.. هم اللي موجودين في الورق ده.

– إنت اللي كاتبه؟!

قلتها ساحبًا الورق ودون وعي مني قربته إلى أنفي متوقعًا أن أشتم به عبير عطر ما.. ما حدث حقيقية، كانت الرائحة تملك شخصية فريدة عن كل العطور..رائحة تشبه التوابل مع مسحة من.. الياسمين.. رائحة الياسمين لا تخطئها الأنف، والليمون.. ربما هناك مسحة من الليمون.. كانت رائحة رجولية قوية لا تتناسب مع ميوعة الورق وفكرته إلا أنها أبهرتني.

– الريحة دي إيه؟

- الريحة..اللون..الحكاية..الصوت..الحركة...كله شيء واحد..بص يا عزيزي..إنت هتاخد الورق ده.. أول ما تخلّصه اتصل بيا..

مدّت استريد يديها بكارت شخصي كتب بخط اليد بحروف أجنبية "كروسيف" يُشبه الخط الفرنسي كُتب فوقه..(فريدي. آتش. مرجوشي) ورقم هاتف.

ابتسم، وقام عنّا دون أن يحيينا، وتوجه إلى مكتبه مُغلقًا الباب، فنظرت أنا نحوها متسائلًا فسحبت يدي نحوها في وضعية "أنجاجيه" مُتعلّقة في ذراعي بكلتا يديها متوجهة بي نحو باب البيت.

- أول ما تخلص قراية تكلم مسيو فريدي.. ده تليفونه اللي مبيديهوش لحد غير القريبين.. بس تتصل قبل الساعة أربعة.. أي يوم قبل اربعة..

كنا قد وصلنا إلى الباب المفتوح.. انهت جملتها وتركت يدي مبتسمة قبل أن تغلق الباب تاركة إياي اتطلع للحديقة، والبوابة الحديدية المقابلة لكورنيش الزمالك.

***

4

مكالمة مقتضبة مني مفاد رده المقتضب فيها كان:

" السبت الثاني من الشهر.. تمام السابعة".

لا أستطيع أن أصف قدر سعادتي.. أنا المدعو لميلونجا "مرجوشي دانس هاوس"، ربما أنا الغريب الأول في تاريخ تلك الميلونجا الشهرية.. فكّرت أن أستعد. لكنني لم أعلم كيف استعد للحدث صراحة، وقبل أن أقرر أن أتصل باستريد لأسألها عن طبيعة الملابس أو الحفل وجدت هاتفي النقال يعزف لحن (3 دقات) مُخبرًا إياي أن استريد على الناحية الأخرى من الخط.

– أنا سعيد جدًّا مش قادر أقولك قد إيه.. مساء النور أولًا..إنتِ حقيقي سبب كبير في سعادتي.. كنت لسه هتّصل بيكي حالًا.

– عارفة عارفة.. بص ميلونجا يوليو هي أهم ميلونجا في السنة، واحنا بنستعد ليها دايمًا من قبلها بفتره..دي أول مره نعملها من غير إستعدادات مكثفة، بس.. إنت قريت الورق.

- بصراحة.. مش عارف أقولك إيه عنه.. الورق ده!

- الورق ده تجيبه معاك.. الميلونجا على شرفك.. تنزل وسط البلد في محل اسمه راسيني في شارع فؤاد.. محل قديم بس مكانه ميتوّهش.. هتقولّه إنك جاي من طرف مسيو فريدي مرجوشي.. هينقّي معاك فراك.. لو مقدرتش على تمنها مسيو فريدي هيتكفّل بيها.

أهانتني الجملة طاعنة إياي في الصميم.. هل يتعمّد هؤلاء القوم إهانتي أم أنهم يتصرفون معي بطبيعية، لكنني فقط في موضع متقزّم جدًّا بالنسبة لهم. تابعت الاهتمام مُبتلعًا إهانتي..

- تحلق دقنك، وتسرّح شعرك، وتكون موجود سبعه تمام.. اورفوار مسيو عاطف.

- اوروفوار، ورحمة الله وبركاته.

حسنًا، كان عليَّ أن أرد إهانتي بسخرية منها.. ردّتها هي بضحكة أعادت الإهانة إلى مكانه في قلبي.

***

مرّت الأيام بطيئة ذهبت فيها إلى راسيني، وانتقيت البدلة، وعلمت لماذا قرّر فريد المرجوشي التكفّل بثمنها.. ثمانية آلاف لم تكن بالمبلغ الهين.. لكني لم أقبل قط أن يصرف فريد المرجوشي عليَّ ويضعني في مركز الضعف.. حاولت أن أحفظ الموديل جيدًا وخرجت من راسيني متوجّهًا إلى

عدة محلات اخرى في وسط البلد باحثًا حتى وجدت أقرب شبيه لتلك البدلة الفاخرة.

أخبرت رئيسي أن عملي على ريبورتاج "مرجوشي دانس هاوس" يسير من جيد لأحسن مما أتاح لي بعض الراحة من ملاحقته إياي بطلب مقالات مختلفة حول موضوعات أخرى تبدو له أكثر أهمية (وهي كذلك) إلا أن إعجابي بشخص مرجوشي ذاته وما رأيته في فيلته جعلني أصور له الحدث المفاجئ الذي سيطالعه في الجريدة في غضون أيام.

ذاكرت الكثير من كتب (تعلم الرقص بدون معلم) و(كيف ترقص التانجو).. شاهدت أفلام (عطر امرأة) بمشهد رقصه المعروف و(السلم والثعبان) و(فريدا) مرات لا تحصى.. ربما وقعت في غرام التانجو.. لكني قط لم أفهم كيف يتم.. هو مُعقّد جدًا.

***

وأخيرًا أتى اليوم الموعود، كنت قد قرأت وأعدت القراءة مرة واثنتين وثلاثًا وتسعًا.. محاولًا فهم ما يود أن يخبرني المرجوشي من خلالها حتى أني حفظت ما فيها تقريبًا واستعددت بالحلاقة والتعطر وحملت الورق تحت ذراعي متوجهًا إلى "ميلونجا المرجوشي دانس هاوس".

على الباب كان الحارسان يقفان بينما تراصت بعض سيارات الشباب هنا وهناك.. كانت الموسيقى تصدح من الداخل، بينما الشباب يتضاحكون مشعلين سجائرهم مختلفة الأحجام، وفتياهم يتضاحكن..

نزلت عن الـــ "أوبر" كالملوك متوجهًا إلى الباب.. كانت أتوقع أن يسألاني من أنا أو يسألاني عن كلمة السر كما شاهدت في الأنواع الأجنبية لكن ما إن اقترب بمظهري اللامع إلا وافسحا لي الباب من فورهما.. حسنًا إما أن السر يكمن في ارتداء البذلة عوضًا عن الجينز.. أو أنهما يعرفانني بطريقة ما..

كانت الحديقة تبدو مختلفة عن المرتين السابقتين. في منتصفها إلى جانب تمثال كيوبيد العاري نصبت حلبة رقص من أرضية خشبية مصقولة ارتفعت عن العشب بانشات قليلة وحددت زواياها الأربع بأربعة عواميد خشبية رفيعة اتصلت من قمتها بدعائم..

ما أدهشني هو الزينة.. زينة ورقية تبدو رخيصة من الورق المقوّى الذي قُص على أشكال طيور وزهور وأوراق شجر يتخلل كل متر منه لمبات ملونة كتلك التي تظهر في الأفراح الشعبية وإن كانت ألوانها أنقى وأزهى.. استدرت حولي لأجد تلك اللمبات منتشرة على الشجيرات.. كان المنظر بهيج بسيط بلا تكلف.

على جانبي الحلبة وضعت أربع طاولات في كل ناحية، وحول كل طاولة بضعة كراسي للحضور. ما أثار انتباهي هو أن الناحية اليمنى كانت مخصّصة للرجال..فقط رجال،والناحية اليسرى لم يكن فيها سوى النساء.. من الغريب أن تأتي إلى حفل راقص.. للتانجو وتجدهم ملتزمين بـــ عدم الاختلاط بين الجنسين.. إما أنه حفل ميلونجا سلفي! أو أنهم محافظون جدًا.

تضاحكت من ملاحظتي وتوجّهت إلى ناحية الرجال المهندمين الذين تميزوا هم عني ببذلات الفراك الأعلى جودة وكميات البريانتين التي غطت شعورهم.. كانوا يبدون كأنور وجدي.. أو عماد حمدي.. عماد وجدي.. أنور حمدي.. كانوا مجموعة ملونة من شخوص و(لوكيشن) فيلم أبيض وأسود.

من الناحية الأخرى انتبهت إلى وجود استريد بين النساء (الكلاسيكيات ايضا) والتي أشارت نحوي أن أقوم قبل أن أبدأ بتحيتهم للجلوس بينهم. فاعتدلت بعد أن كنت قد بدأت الجلوس فعليًا وتوجهت نحوها فتقابلنا في المنتصف.. أمام حلبة الرقص.

– بون سوار.

انتظرت أن تقول لي (إيه الشياكه دي) لكنها فاجأتني:

– إنت مشتريتش البدله من راسيني ليه؟!

– شكلها وحش؟

– مش فراك..

فهمت أخيرًا.. إنه الفراك، هو شيء مختلف.. حسنا سمعنا في الأنواع عن الفرق بين بذلة البونجور والفراك والتران سوت والترينجوت والآن أنا أرى من يستطيع التفريق بينهم فعليًا.

تابعت هي:

– على العموم.. مش مهم إيه رأيك في الديكور؟

- مش رخيص حبتين.

قلتها متضاحكًا فرفعت هي حاجبيها:

- بسيط.. لكن مش رخيص أبدًا.. مكانك مش هنا.. ده مكان الراقصين.. مكانك هناك.

أشارت بيديها إلى كرسي قبع وحيدًا خلف الحلبة إلى جانب مشغل الموسيقى (الشيء الوحيد الحديث في تلك الليلة العتيقة).

رفعت حاجبي استغرابًا وأعدت النظر إليها فوجدتها تشير إلى أحد أفراد الأمن والذي اختفى لحظيًّا.

توجّهت إلى كرسيي المخصص ورأيت رجل الأمن يعود ومعه فريدي مرجوشي. توجه رجل الأمن إلى مكانه المخصص على البوابة بينما اعتلى فريدي الحلبة وحيدًا بين الإضاءة وبيده مايكروفون، وابتسم نحوي ثم نحو الراقصين تو أن نطق هدأ صوت الموسيقى، ما أنبأني أن أجهزة الصوت مُعدّة إلكترونيًّا بشكل بديع رغم قلة القائمين على الليلة.

سينيوراس اي سينيوريس، بيانفينيدو ألا ميلونجا دي هوليو.. الليلة مميزه..ميلونجا يوليو..أول ميلونجا صيفي..أول ميلونجا بعد توقف شهرين، وكمان.. معانا ضيف عزيز الليلادي.. سينيور عاطف سلامه.. ال نويفو ميراندو

سرت همهمات، فعلى ما يبدو أن النويفو ميرادنو هذا هو شخص ذو حيثية ما لا أفهمها.

تابع هو:

- آخر نويفا ميراندا كانت سينيورا زهرة.

قامت هذه الزهرة عن كرسيها تحيي الجميع وبادلوها التحية بتصفيق مقتضب وابتسامات.. كانت امرأة سمراء ممتلئة ترتدي فستانًا مبهرًا أعطاها كثيرًا من الحيوية بدت فيه كالأمريكيات من أصول أفريقية أكثر منها مصرية وانتبهت للاسم، ووجدتني أتساءل.هل.. هل من هم بالأوراق هم ذاهم حضور الميلونجا؟

استدار فريدي نحوي:

- النويفو ميراندو..عنده فرصة يبقى ميلونجيرو..بس لو فهم الميلونجا.. فرصتك كبيره سينيور، النهارده هنرقص على أنغام التانجو التقليدي في تلات تاندات مختارة بعناية.. القصة ورا كل رقصه بتعبر عن المشاعر اللي فيها ومش بالضرورة تعبر عن مشاعركم الشخصية..استمتعوا بوقتكم.

ابتسمت أنا الآخر شاعرًا أنني في برنامج "من سيربح المليون" فقط سيكون عليَّ أن أفهم بعض الأشياء التي لم أفهمها سابقًا وأربطها ببعض الحركات الراقصة التي لم أجيدها قط.

- سينيور سلامة.. تحب تبدأ بإيه؟

نظرت له غير عالم ما يسألني عنه..

- عندك مجموعة رقصات في الورق.. تحب تبدأ بإيه فيهم؟

فهمت أخيرًا لحظتها معنى الورق، وما به.. فهمت ما يودني القيام به ومعنى نويفوميراندو التي قرها عقلي ل(الزائر الجديد) لحظيًا.. ابتسمت وقد ملأتني الثقة، وقمت إلى الحلبة إلى جواره.

– مساء الخير.. اعتقد لو هنبدأ، ومدام زهرة هي النويفا ميراندا اللي فاتت يبقى..

قاطعني هو:

– لا.. مودموزيل زهره مش هينفع تبدأ.

أجفلت للحظة.. لقد ألقاني من قمة جبل الثقة بالنفس إلى الحضيض.. حاولت استجماع ما رأيته في الوريقات.. لم تسعفني ذاكرتي، وأخيرًا بعد لحظات من الصمت المطبق تذكرت.. أول ما خطر ببالي.

– آآآه باتشانجو؟!!

قلتها في عدم ثقة..

فابتسم هو ملء شدقيه وقال:

– باتشاتانجو It is

قام رجل من صف الرجال وتوجه إلى ناحية النساء، ودعا إحداهن إلى الرقص وبينما جرى ذلك توجه مرجوشي إلى جهاز تشغيل الموسيقى وتابع حديثه:

***

التاندا الأولى[4]

باتشاتانجو

تحوّل حديثه إلى العربية الفصحى كما فعل معي قبلا يوم قرّر تعليمي نظريًا، وألقى على مسامع الجميع بينما نظراته كانت ترتكز علي:

- تعد النسخة الأقل حسية من رقصة الباتشاتا الدومينيكانية، تانجو يمزج بين الخطوات الرباعية للباتشاتا مع حركات التانجو الاعتيادية من ضم والتفاف ورفع ودفع وتباين في حركات السيقان في الالتفاف من وضع التانجو المفتوح لمفتوح كالباتشاتا أو المغلق لمفتوح للتانجو.

نرقصها معًا على أنغام "ناختليش جيتارين" الجيتار الليلي لإجوين ولف.. مشكلة تلك المقطوعة تكمن في عدم معرفة مالكها، ومؤلفها الأصلي، أقدم تأريخ لها يعود لسنة 1940 حين عُزفت على الجمهور العام

---

4 – يمكنكم الاستماع الى موسيقى العمل عبر

https://soundcloud.com/ahmed-tage/sets/milonga

في برلين ولم يُعرف المؤلف الأصلي إلى اليوم.. كثيرون نسبوها لأنفسهم ليس طمعًا! وإنما محاولَة لإنقاذها بكونها واحدة من تراث التانجو في ألمانيا النازية منذ العام 1945، كان من الممكن أن تُمحى نهائيًا من الوجود فقط إن قيل أنها من إبداع " النازي".

***

كنت أسير وحيدة في ذلك الشارع، أشعر بذلك الخواء العميق يملؤني ويطفو على السطح متمثلًا في التعبير الغريب الذي ارتسم على ملامحي الذي لاحظته في مرآة سيارتي.. أدور في حلقات مُفرغة حول ذلك المنزل كشاب مراهق يتمنى أن يرى حبيبته تطل من الشرفة ولكن لا أنا شاب مراهق، ولا هو حبيبتي!

ربما تفكيري في المجيء إليه خطئًا، ولكنه صواب على ما اعتقد، وأخيرًا رأيته يتطلع إلى سيارتي من نافذة حجرته، ودون وعي مني ضغطت على مكابح السيارة في عنف.. فتوقفت، وخرجت منها إلى الشارع بهوائه المنعش كي أبدو جلية أمامه..أعلم أنه لم يستطع تمييزي في الظلام في باديء الأمر، ولكن ما إن تعرّف عليّ حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة كنت قد اشتقت إليها قبل أن يشير إليّ بيديه أن أصعد.. ودون وعي ذهبت إلى سيارتي، ركنتها، وتوجهت نحو باب البناية في ثقة من أمري.

وكان هو في انتظاري على باب شقته يبتسم إليّ بينما يتلفت يمينًا ويسارًا كي يتأكد أن أحدًا لن يرى تلك المرأة التي تزوره قرب منتصف الليل.

تبدأ الخطوات الأولى بالدوبلي فرينتي.. يأخذ الجانشو الجنشادا يدا بيد بعد استدارة التموضع ليسيرا جنبا الى جنب تسبقه هي بسنتيمترات في ثلاث خطوات قبل الالتفاف و العودة للوضع الرئيسي لمتابعة الرقص.

***

– هويدا! إزيك.. وحشتيني.

وطبع قبلة على خدي رددتُ عليها بالمثل بينما كان كفي لا تزال بين كلتا يديه. قادني إلى الداخل وأجلسني.

– يااه.. مشفتكيش من ييجي سنتين.. أنا قولت نسيتني.

– كنت بحاول والله.. لكن نقول إيه بقى؟!

– هجيبلك حاجة تشربيها.

أجاب عليٌّ، وذهب بعد أن أدرك أن مشكلة ما قد حلت بي.. إنني ما كنت لأزوره قط ما لم أشعر بما أنا فيه الآن، والآن أيضًا هو يدرك ذلك.

وحين أتى بكأسي العصير كنت أرسم معالم الإعجاب على وجهي، وأنا أتطلع إلى الشقة.

– شقتك هايله..تصدق دي أول مره أشوفها من جوه.. بس ناقصها.. تقدر تقول لمسة أنثوية.

- مش يمكن أنا قاصد.. علشان كل ما واحده تيجي تحاول تضيف لمستها هي

وضحكنا قبل أن يستطرد:

- ها.. في إيه يا هويدا.. مالك.. جوزك كويس؟!

وضعت الكأس على الطاولة وأنا أحاول أن استجمع ما أريد قوله ولما لم يسعفني لساني قررت أن أستثمر ثواني في إشعال السيجارة كي أرتب ما أريد قوله.. الشيء الذي لم ينجح هو الآخر.

- مش عارفة في إيه يا أمجد.. بحاول أعرف في إيه.. هو ماله وأنا مالي أنا حتى مش عارفه مين فينا الغلطان.. تعبانة!!

- اتخانقتوا؟

- إحنا مبنتخانقش.

- هايل.

- مبنتخانقش علشان البيه وقته مبيسمحش.. وقته يادوب بيكفّي يكلّمني مرة كل كاااام يوم تلت أربع دقايق ع التليفون.. اتخانق إمتى بقى إن شاء الله؟

رفع حاجبيه متعجبًا، وإن كانت نظرة السخرية تغلب عليه.

- وهي دي مشكلتك؟

- طبعًا.. مفيش ست تقدر تعيش من غير خناق.

- مش فاهمك.

داري ضحكاته مع رده على جملتي التي اكتشفت تو أن نطقت بها لكم كانت بلهاء.

- ولا هو فاهمني ولا أي بني آدم فاهمني.. علاقتي بجوزي..مش بس روتينيه زي ما بيقولوا.. معدومه.. المشكلة مش في الخناق في حد ذاته يا أمجد.. الخناق شكل من اشكال التعبيرات الإنسانية اللي بدأت أساها واحد ورا التاني.. أنا بطلت أضحك، وقبلها كنت خلاص بطلت كمان أعيط، وجيتلك النهارده قبل ما أفقد القدرة على النطق كمان.

ظهرت على وجهه تعبيرات التأثر الميكانيكي، وكأنه فقط يحاول مشاركتي شعوري دون أن يستشعره فعليًّا، وربما تلك هي مشكلتي.. إني أحيا مشكلة لا يشعرها سواي.

- يعني بوصفك ده.. وضع مرعب.

- مش عايزاك تحزن عليا.. أنا حاسة إني أحسن كتير، وانا بتكلم معاك.. ساعات بحس إني عايزة أصرخ، وساعات تانية بقعد لوحدي في البيت وأحاول أحلّل حياتي.. أنا عملت إيه غلط.. ساعتها بس صورتك بتظهر في خيالي..الراجل اللي حبني وأنا اديته ضهري..ساعات بقول يمكن ده عقاب ربنا ليا.. أو الكارما زي ما بيقولوا ! (karma is a bitch).. أمجد انت بتكرهني؟ناقم عليا؟

رد عليّ متصنعًا الغباء بينما تخللت أصابعه قمة رأسه:

- معرفش.. يمكن شويه..معرفش مسألتش نفسي إن كنت كرهتك ولا لأ؟!

دون وعي مني وجدت نفسي أستند بظهري إلى الأريكة التي لم ألاحظ حجم أبعادها الضخمة بموديلها الأمريكي إلا بعد أن استندت لأجد نفسي شبه مستلقية عليها عوضًا عن مجرد الجلوس، ولا أعلم ما الذي منعني من الرجوع إلى وضعي الأول.. هل هو الإحراج أم أنني بذلك الوضع كنت دون تخطيط قد أعطيت أمجد انطباع ما أردته أن يشعره، ونفثت دخان سيجارتي التي كادت أن تنتهي:

- فاكر أيام ما كنا مع بعض؟

- إلا فاكر،وفخور بيها.. ذكرياتنا سوا يمكن هي أنضف ذكريات ليا في الخمس سنين اللي فاتت.

- أنا لأ.. أنا مش من النوع اللي بيحب يفتكر أخطاؤه طول الوقت.. وأنا غلطت في حقك كتير.

- أنا ممكن اسألك سؤال؟

- ممكن كل حاجة.. بس ولّعلي سيجاره تانيه من فضلك.

وأشعل لي السيجارة وهو يسأل:

- إنتِ عمرك ما حبتيني.. مش كده؟

حاولت أن أبحث عن الإجابة الأنسب.. بعيدًا عن الكذب، ودون خسارة موقفه المتعاطف.

- إنت ليك منزله خاصة جدًّا في قلبي يا أمجد،وربنا عارف.. يمكن مش حبيب.. لكن أكتر من مجرد صديق.

وحينها وجدته يدنو مني ببط ء مدروس على ما أعتقد.. تلك النظرة التي أحفظها في عينيه تخدر أعصابي، وحين صار وجهه يملأ عيني بحيث لا أرى سواه قال بأرق ما استطاع:

- عشيق مثلًا؟!

***

من الخطوات العادية روحة ومجيئًا يفاجيء الجانشو الجانشادا بإرسالها بطول ذراعه ومن ثم جذبها نحوه ويوقفها بخطوة أمام قدمها لتسقط لا يرفعها سوى ذراعه،من ثم يجذبها مجددًا فتُشيح بوجهها عنه مع العودة للخطوات الاعتيادية.

***

هزّت الكلمة كياني فوجدت نفسي أفلت من تحت جسده، وأقوم منتصبة في عصبية.

- إيه كلام المسلسلات ده؟! حاجات كتير كانت مكن تحصل الليلة لولا إنك قولت الكلمة الغلط..إنت عمرك ما كنت،ولا هتكون عشيقي.. انا مبرافقش يا أمجد.

- نعم !!..أومال جيتي ليه؟

قالها باسمًا، وهو يقترب مني. كان يتصرف بشكل لا أحتسبه عدوانيًّا ودار حولي ممسكًا بكتفي في وضعية التدليك التي لا أنكر أنها خففّت من حدة توتري.

- جيت أتكلم مع حد بستريحله، وبفتح له قلبي.. حد يخفّف عليّا، وينصحني.. مش علشان يغتصبني.

- يا لهوي.. يغتصبك!

قالها ضاحكًا بتهكم، وهو يدور مواجهًا إياي بينما غير من وضعية يديه ليضعهما أيضًا على كتفي، ولكن في مواجهتي مما أعطاه مركزًا قويًّا.

- متصدّقيش نفسك.. إنتِ جيتي باختيارك، وقعدتي تدوري حوالين البيت أكتر من نص ساعه بتفرّج عليكي من ورا الشباك، وطلعتي علشان تحكيلي مشاكلك الزوجيه الخاصة قبل ما تنامي قدامي على كنبتي.. تفتكري كده أنا أبقى بغتصبك؟!

ضحكت مجددا َقبل أن أفلت من يديه ذاهبة نحو الأريكة، وجلست عليها، ولكن تلك المرة جلست على طرفها كقطة مرتعدة فرائصها.

لاحظ هو ذلك وأشار بيديه قائلًا:

- متخافيش ومتصدّقيش نفسك.. إنتِ عارفه إني مش هعمل حاجه تضايقك.. تقدري تقولي إني مقدرتش أقاومك للحظة..

- إنت عارف أنا ليه، وجوزي مبنتكلمش.. أنا مش بشوفه.. مجاش البيت من شهرين، ومقدرش ألومه.. الضغوط كتيره عليه.. في الفترة الأخيرة بقى بيسافر كتير مع مراته الأولانيه.. إنت عارف إنها مريضة.

- لا معرفش.

- لوكيميا..حالتها دايمًا بين أون وأوف ودايمًا محتاجاه جنبها..أنا عارفة من قبل ما أوافق أتجوزه إنه متجوّز، وإن مراته مريضه، وميقدرش يطلق ست مريضة ووحيدة زيها، وأهلي مقاطعني من يوم ما أصريت إني أتجوزه إنت الوحيد اللي ممكن أفضفض معاه من غير ما يأدبني ولا يشمت فيا.. ويمكن تشمت.. معرفش، بس انت أول إنسان أنا فكرت فيه لما احتجت أتكلم.

أنهيت كلامي،ونفثت آخر نفس من تلك السيجارة اللعينة.. إنها الثالثة لهذه الليلة.

- هويدا.. انت عارفة إن مجيتك عندي غلط من الأول؟

- ليه؟!

- لأني الحد الغلط أصلًا..أنا مكدبتش لما قولت إني أنفع أبقى عشيق.. أنا منفعش في وضعنا ده أكون حاجه تانيه أصلًا.. متنكريش إن الفكره كانت موجودة في حته ما في عقلك،ومستخبية..إنتِ بس مكنتيش عايزاها تيجي مباغتة كده..إنت مش عايزة تتكلمي..إنت عايزة راجل في حياتك.. ولما يحصل اللي كان ممكن يحصل..كانت الذريعة هتبقى موجوده

ومتحضّرة.. الندل اغتصبني.. أو استغل ضعفي وغوايي.. أو عملتها انتقامًا من جوزي اللي هاملني.

قاومت غضبي بنبرة السخرية في حديثي:

- إيه كل ده.. جيبت الكلام ده كله منين.. خيالك واسع يا أستاذ.. إنت مش فاهمني زي كل الناس ما هي مش فاهماني.

- ده اللي انت بتعمليه بقالك نص ساعة.

وصمت للحظة أفكر فيما قال، واكتشفت لأول مرة أن كلامه ليس خطأ تمامًا، وربما يقترب من الواقع، ولكن ليس بذلك الشكل القبيح الذي وصفه به.. قمت عن الأريكة وأفسح هو لي مجال للحركة ومن ثم جلس حينما بدأت بالحديث.

- يمكن اللي بتقوله.. يمكن.. يكون فيه شيء من الحقيقة.. أنا فعلًا محتاجة راجل..لكن مش كده..مش للبايولوجي.. مش عايزه راجل علشان أحس إني ست.. محتاجه حد يحسّسني إني بني آدمة.. محتاجه بني آدم جنبي للدقة.. مش مجرد راجل.. عايزه حد يملا فراغي الإنساني مش العاطفي يا أمجد.

- إنت محتاجه زوج.

- أعتقد إني محتاجه أنام أكتر من أي حاجة تانيه.

قلتها متوجهة نحو الباب مشيحة إليه بيدي في استهتار بالموقف ككل.

– تقدري تباتي هنا لو عايزه.

استدرت إليه مقاومة إحساسي بالإهانة، ورددت بأكثر الأشكال تباسطًا.

– هعتبر عرضك بريء، وأقولك ميرسي مقدرش.

– مجرد اعتبارك عرضي عرض بريء بيثبت نظريتي مش نظريتك..

وما إن فتحت الباب، وقبل أن أخطو خارجة ودّعني، وهو قائل:

– اعملي حسابك.. لو خرجتي متجيش تاني إلا، وانتِ عارفه إن الزياره الجايه مينفعش تبقى زيارة كلام.. كبرنا على لعب العيال ده.

ركبت سيارتي، وأنا ألوم نفسي على مجيئي إلى أمجد.. كنت مستاءة ربما أكثر مما كانت عليه حالتي قبل مجيئي إليه.. هل لأنه أخطأ فهمي.. أم ربما لأنه فهم ما لم أفهمه أنا عن نفسي؟، وحين تأكّدت أن حالتي صارت أسوأ مما اعتقدت قرّرت أن أول ما سأفعله حين أذهب إلى المنزل هو محادثة رؤوف هاتفيًا.. لا أعلم ماذا سأقول له..ربما سأحكي له حكايتي الصغيرة تلك.

***

تقوم الجانشادا بالـ باسادا حيث تعبر بقدمها حول قدم الجانشو رغم تعلق ذراعيهما على الوضع المفتوح برقة ومن ثم تتقدم يسارا ناظرة له بطرف عينيها ومعلقة به بيد واحدة بعد أن يطلق يمناها.. خطوة من الجانشو إلى الوراء وخطوة منها إلى الوراء أيضا ليتباعدا

ولكن لدهشتي فقد دخلت إلى المترل لأجده أمامي جالسًا على أحد الكراسي بقامته الطويلة، وبعض الشيب على فوديه الذي أعتقد انه قد زاد قليلًا.. كانت ابتسامة محببة إلى ترتسم على وجهه بينما ينفث دخان غليونه العاجي.

- رؤوف؟!!!

- هويدا.. إنتِ فين؟

قالها في تعجب ممزوج بشوق كبير جعله يبدو غير حقيقي بالمرة.. لطالما كانت تعبيراته التي يُبالغ في استخدام حاجبيه فيها تُحيّرني.. تُشعرني أن شيئًا ما به غير حقيقي، وربما هذه الحيرة هي ما جذبني إليه من الأساس.. شوق أشهر بدون لقاء.

- مغيّرتش هدومك ليه.. إيه مش بيتك ده ولا مش ناوي تبات؟

قام إليّ، واحتضني بينما كنت ما زلت مندهشة لحضوره إليّ.

- البنوته الشقيه كانت فين.. بقيتي بتتشاقي وتتأخري.

قالها بينما كان ينظر إليّ، وقبلني على وجنتي قبل أن أجيب.

- بطّل تعاملني على إني بنتك.. أنا كنت في....

وتردّدت هل أقول له أم أصمت، ولكن وخز الضمير كان سيمنعني، ولذا وجدت الحل هو أن أعترف له ولكن بأقل قدر من الخسائر.

- اتعشيت؟!

أومأ أن لا.

- خلاص هحكيلك ع العشا.. غيّر هدومك على بال ما أحضّر حاجه بسرعة.

- خدي راحتك.. هاخد دش، واحلق دقني، واغيّر هدومي، والبس الروب الحرير، ونظّبط كل حاجة.

كانت جملته تملك إشارات واضحة.. حسنًا، هو رجل يشتاق إلى زوجته..أو مجرد ذكر يشتاق إلى الجنس.. فيما يخص رؤوف لم أعد متأكدة من الفارق.

حضّرت الطعام، وأتى هو إلى السفرة، وبينما كنت أضع قليلًا من الأرز في طبقه أعاد عليَّ السؤال.

- ها كنتي عند ماما؟

- إنت عارف إن ماما مقاطعاني من يوم جوازنا..معتقدش إن في حاجة ممكن تغيّر الوضع ده حاليًا.. إلا لو لقيتني بكلمها أقولها إني سعيدة، وحامل مثلًا، وانت قافل الكلام في الموضوع ده.

حاول تغيير الموضوع بعيدًا عن أمر الإنجاب الذي أجبرني على وقف التفكير فيه نهائيًّا مع أول تجربة إجهاض أجبرني عليها قبل ان يُلزمني بوسائل منع الحمل.

- أومال كنتِ مع مين؟

- شاب...

قلتها، وأنا أنظر إليه وأنتظر ردة فعله التي أدهشتني،كانت الشوكة في اتجاهها نحو فمه حين تفوّهت بكلمتي الأخيرة فما كان منه إلا أن توقّف عن الحركة لثوان كأنه يستوعب الكلمة، ثم أكمل طعامه دون اكتراث، وبعد حوالي نصف دقيقة أردف:

– وانبسطتي؟!

– والله ده يتوقّف على تعريف كلمة انبساط..إنت مثلًا بتستمع بالشغل، و في ناس بتحب الشوبنح و...

قاطعني هذه المرة مُحتدًّا بينما هب واقفا فبدا لي كعملاق من إحدى الحكايات.

– كنتِ فين، وعملتي إيه معاه يا هانم؟

– مفيش.. ده صديق قديم.. اتقابلنا..صدفة،وكنا سهرانين.. بنتكلم.. بنتكلم عادي يا رؤوف.

اضطررت أن أجمّل الحكاية، وحين سمع تلك الجملة هدأ كأنه منوم مغناطيسيًّا جلس مجددًا وأكمل طعامه، وبعد نصف دقيقة أخرى أردف مجددًا.

– أنا معنديش تحفّظات على أصحابك، ولا على نوعهم سيان ستات ولا رجاله.. بس مفيش ست محترمه تسهر مع لا صديق ولا صديقه لوقت زي ده.. أنا هعدّيها بمزاجي.

قال جملته الأخيرة، وهو ينظر إليّ بطرف عينيه محذرًا.

- طب مش هتسألني قابلته ليه؟

- لأ.. مش عايز أعرف.

- بس أنا عايزاك تعرف، وعايزه أحس إنك مهتم إنك تعرف.

- خلاص..لما نخلّص أكل نبقى نتكلم في البلكونة، واحنا بنشرب الشاي.

وبعد أن انتهى من طعامه ودون كلمات توجّه إلى الشرفة، وحين تبعته باكواب الشاي كان يحشو غليونه بالتبغ، أشعله، وابتسم لي بينما أعطيه كوبه.

- ها يا حبيبتي.. تقدري تعترفي بقى بكل اللي عايزه تقوليه.

- أنا معملتش حاجه أعترف بيها يا رؤوف.

قلتها، وارتميت على الكرسي المقابل له غاضبة مدافعة في ذات الوقت.

- إنتِ اللي مدّياني الإيحاء ده مش أنا اللي بتهمك.

- كنت عايزه أتحدّاك.. إهمالك ليا وبعدك عني.. كنت عايزه أحس إن في حد بكلمه..حنا متجوزين من ييجي خمس سنين.. فاكر آخر مره خرجنا سوا..كنت عايزة أحس إني أقدر أعمل اللي أعوزه في وقت ما أحب..أنا لو عايزه أخونك مكنتش حكيتلك.. أنا تعبانه.. إنت بتشك فيّ؟

- لو شاكك فيكي كنت قطعت لسانك، ورقبتك بعد أول كلمه، ومدتّكيش فرصة ترُصّي الرصّة دي.. هويدا.. أنا عدّيت الستين، وفاهم

الدنيا كويس، وفاهمك، وفاهم كويس قوي اللي بتقوليه..إياكي تغضبي أو تحاولي تتحدّيني تاني.. غضبك هو عدوك.

ودون أن يُكمل قام عن مقعده، وأمسك يدي ليوقفني أنا الأخرى، واحتضنني قائلًا..

– أنا بحبك يا هويدا، وعارف إنك بتحبيني..متحاوليش تجرحيني تاني.. خلّيكي قد حبي ليكي.

***

الجانشو الآن يتقدم نحوها خطوتين بينما تستدير الجانشادا على محورها معطية إياه ظهرها، يضع يديه على كتفها برقة فتميل برأسها ومن ثم تمسك يمناه يمناها ويدفعها بيسراه فترتمي إلى الأمام لا ترتكز الا على يديه فتستير حوله على محورها وتتعلق هي بكتفه الأيمن وتبدأ ساقها اليسرى في الانفراد مع نزولها لاسفل في وضعية فوليو الصعبة.

***

ودون كلمة، دون أن يرشف من الكوب توجه بي نحو حجرة نومنا الحجرة التي بقيت وحيدة بها ليالي أطول من أن أعدها.

***

حين اقترب الفجر كنا لا نزال مستيقظين، وبينما كنت أحدق أنا إلى السقف بلا هدف كان هو مُستلقيًا بجواري يراجع بعض الأوراق، ولكن ذلك لم يمنعه أن يقرأ، وهو مُمسك بيدي، ومُقبل إياها بين الحين والآخر، الشيء الذي جعلني أفكر أنني في قمة سعادتي في وضعية كتلك..فلا سعادة للمرأة أكثر من أن تشعر أن زوجها يشعر بوجودها حتى وهو لاهٍ عنها، ووجدت نفسي أقول له:

- تفتكر إن جوازنا ناجح.

- أعتقد.. لحد كبير.. 60% مثلا.. ترضيكي النسبة دي.

- وإيه اللي ناقصنا علشان نبقى 100%.

- إننا نفهم إحنا عايزين إيه من بعض يا هويدا؟!

استدار إليّ أخيرًا تاركًا الأوراق لتسقط على الأرض، ولم يهتم بانحسار الغطاء كاشفًا عن جسدينا قبل أن يقول:

- إحنا اتجوّزنا بعض ليه؟ إنت مثلًا اتجوزتيني ليه.. متقوليش الحب.. عارف إنك أكيد بتحبيني بدرجة ما..بس الحب في حالتنا دي مش سبب للجواز على الأقل لوحده.

شعرت بالإهانة لثاني مرة تلك الليلة إهانة جعلتني أجذب الغطاء لأداري جسدي عنه غير عابئة بتعريه الكامل أمامي كأني أحمي نفسي منه.

- على العموم أنا مكنتش ناويه أقول الحب.. أنا آه أُعجبت بيك، وحبيتك.. لكن أنا اتجوّزتك علشان الأمان يا رؤوف.. الأمان اللي

معرفتوش من يوم طلاق أمي، وأبويا.. الأمان اللي بطّلت أحس بيه حاليًا، ونزلت أدوّر عليه في الشوارع مع أي حد.. أنت بقى اتجوزتني ليه؟

استدار عني وأمسك بالروب ليرتديه بينما أجابني دون النظر نحوي.

***

يتوقف التمايل الرباعي بين الجانشو والجانشادا ومن ثم في استعراض قوة تقوم الجانشادا بالـ كولجادا حيث تستند بقدميها على قدميه لإمالته للأمام نحوها أقرب من الوضع المفتوح للوضع المغلق . فما يكون منه سوى حملها تمامًا من ساعديها لترتكز على صدره بمرفقيها، يدور بها دورتين كاملتين إستعدادًا لردّها لوضع أكثر ثباتًا.

***

– إنتِ عارفه إني مبحبش أقولها كتير..بس الحقيقة إني عجوز.. عدّيت الستين، مراتي بتموت بقالها سبع سنين..حتى شعوري بالشفقه تجاهها خلص..خلاص..بقيت بكره وجودها..حاسس إنها سبب وحدتي وعذابي.. فجاه ظهرتي إنتِ في حياتي.. بنوتة مرحة وجميلة وصغيرة وبتشاغلني.. حسستني إني لسه شاب..إنتِ البنت اللي مخلفتهاش، والحب اللي مبقتش طايله، والشباب اللي بيروح مني يوم بعد يوم.. هويدا.. أنا عمري ما هاخد منك الحياه اللي اتحرمت منها إلا لما أدّيكي الأمان، وانتِ مش

هتاخدي الأمان غير لما نعيش.. نعيش سوا يا هويدا، وده مش هيحصل الا لما مراتي تموت.

قمت إلى المرآة ساحبة الروب على جسدي.. كنت أحاول ان أبدو مثيرة، أعرف أن انسدال شعري على ظهري العاري قد يشجعه على قرارات كثيرة مباغتة بالأخص لو جلست لأضع قليلًا من أحمر الشفاه، وأنا بتلك الهيئة أمامه.. انتهيت من رسم تلك الصورة التعبيرية، ومن ثم أكملت حديثي بالسؤال مستديرة نحوه، وقد كان يتابع لفتاتي بشغف.

- ولو مراتك ماتت بعد ما أكون أنا اتجننت في دماغي،ولا شبابي راح، ولا مرضت أنا كمان؟

لكن إجابته العاقلة أذهلتني، وشعرت به حقيقي وغير مبالغ ربما لأول مرة في حياتنا الزوجية.. حدثني مشيرًا بيدي إلى الفراش داعيًا إياي للعودة إلى جواره.

- ساعتها إحنا الاتنين هنتحمل نتيجة إختياراتنا، وظروفنا.. البني آدم مش أكتر من مجرد إختيارات يا هويدا، ومش هنصلّح إختيار غلط.. باختيار تاني غلط.

جلست إلى جواره أبتسم دون كلمة أخرى، وتوجّه بيديه نحو قابس الكهرباء، وأغلق الإضاءة وأخذني بين ذراعيه لننام.

بالطبع لم أكن سعيدة بما حدث الليلة، ولا حتى بمُحصّلة حواري معه، ولكن على الأقل قد أشعرتني أحداث اليوم بالراحة.. لقد تحدّثت أخيرًا إلى

زوجي، وتغيّر شعوري من الغضب..ربما تموت زوجته كي أعيش أنا، وربما أعيش أنا طوال عمري أجتر محصلة اختياري.. اختياري أنا، ولكن على الأقل أنا أعلم أنني لن أسير تائهة في الشوارع كما حدث الليلة لأبحث عن من أتحدث معه.. لقد اخترت ذلك.

***

في النهاية يضعها الجانشو على الأرض وقد عادت لوضعية الجلسة الثابتة مع ساقها في وضع كورتي الاستعراضي.. انتهت الرقصة.

***

هناك تعبير إنجليزي قرأته كثيرًا..Speechless ولا أعلم كيف تترجم.. لكن أقرب ترجمة هي "فاقد القدرة على التعبير انبهارًا" كنت منبهرًا.. أنا غير متأكد إن كانت تلك السيدة التي قامت بالرقصة أمامي هي هويدا ذاتها.. بالتأكيد هي هويدا.. لكن هل كان الراقص زوجها؟ أم صديقها؟ أنا أعلم القصة جيدًا.. لكن الراقص كان يؤدي دور العشيق ودور الزوج ببراعة.. هل كلاهما واحد في الحقيقة كما هما شخص واحد في الرقصة.. القصة واقعية أم مختلقة للرقصة؟

أجفلت للحظة فاقد القدرة على التركيز، وربط تلك الموسيقى الرائعة التي استمعت إليها ورأيتها تؤدى بالقصة خلف كل حركة.. كل هبوط والتفاف وتحاور بالسيقان..كان يُمثّل كل كلمة خطّها مرجوشي عن هويدا..

بعد موجة التصفيق التي شاركت فيها بطريقة باهتة مأخوذًا بفكرة ما أراه أمامي تقدّم مني فريدي مرجوشي مرة أخرى.

- سينيور ميريندو.. التاندا 3 مقطوعات.. تختار لنا إيه في التانيه؟

كنت أعلم تمامًا ما عليّ اختياره.. فإذا كان ما خط عن هويدا في الورق هو ما شاهدته بأم عيني فبالتأكيد أنا الآن في حاجة إلى متابعة الميلونجيرو..

***

ميلونجيرو تانجو

ما إن نطقت بكلمة ميلونجيرو تانجو حتى ابتسم فريدي، وأشار إلى أحد الجالسين على الطاولات (الرجالي) وبدأ الحديث مُداعبًا جهاز تشغيل الموسيقى.

– تعود تسمية هذا النوع من الرقص إلى ميلونجا في بوينس أيرس "الأرجنتين" وهو نوع من التانجو يتطلب مهارة فائقة في الرقص قائم على تقارب الراقصين بشكل شديد وقيادة الجانشو في الميل والالتفاف في الموضع مغلق لمفتوح، وهو النوع الأكثر حفاظًا على تقاليد التانجو الحرفي الميلونجي.

نرقصها معًا من توزيع وعزف تشيلو الرائع (ستيبان هاوزر) لموسيقى (اوبليفيون) أو نسيان.. كتبها الخالد استور بياتزولا أبو التانجو الحديث من عزف حي لأوركسترا زيجرب الفيلهارمونيك في يونيو 2012.

كان الرجل قد أتى، وبمنتهى الهدوء تأبط ذراع فريدي مرجوشي وبدأت الموسيقى بالعزف، وأنا أقاوم عذوبة ما أسمع بجملة تدور في مخيلتي (يا حلاوة رجاله بيرقصوا مع بعض).

ابتلعت أقراص الدواء واحدًا تلو الآخر في ضيقٍ، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أُحدّق إلى سقف حجرة مكتبي مُحاولًا الاسترخاء علّني أشعر بتحسّن بعد هذا الكم مما قد تعاطيته.

كنت أحاول استرجاع أحداث حياتي في الفترة الأخيرة،وخصوصًا بعد كل مرة أتعاطى فيها دوائي، وكأني أستجدي أمل في حياتي من الذاكرة، ربما اليأس من الشفاء هو ما قد جعل الكآبة جزءًا لا يتجزأ من حياتي، وربما هو الملل بعد أن حققت كل أحلامي، ونلت كل ما ابتغيت في حياتي تقريبًا.

إنه الشعور بالعجز .. حين تدرك أنك مريض.

الشعور بالشيخوخة حين تدرك أن الموت قد أصبح أحد رفقائك؟

شعور بأنك تكاد تسقط من فوق قمة العالم.. حين تصعد إلى قمة العالم.

ولا أعلم لما قد بدأ عقلي في التفكير فيه مؤخرًا.. لا أنكر انه يتراءى لي بين الحين والآخر كأحد ذكرياتي العتيقة التي أريد دومًا نسيانها وإزاحتها عني، ولكن يوم أن أخبرني الطبيب أن لا أمل في بقائي إلا تلك العملية اللعينة بالخارج أو فليكن عليَّ انتظار الموت تذكّرت صلاح، ومن يومها وأنا أتذكّره باستمرار، وكأنه عاد إلى حياتي من غياهب الماضي.. صحيح أن ما يفصلني عنه فقط هو الرواق الطويل بين مكتبينا، ولكني أدّعي أن عالمينا قد صارا مختلفين من يوم قرر أن يتركني، أو يوم قررت أنا أن أتركه كما يدّعي.

من البداية المتباعدة يقترب الجانشوِ إلى الجانشو دوس، والذي يتمتع بقوة الخطو إلى ان يلتقيا في وضعية ديسوتسيار حيث يكون النصف الأول من الجسد متحرك بعكس اتجاه النصف السفلي من اليمين إلى اليسار علويًا ومن اليسار إلى اليمين سفليًا كالمقص.

***

وجدت نفسي أتساءل: لَمَ لَمْ أحاول زيارته طوال الفترة الماضية؟

سنون لم أحاول فيها أن أمر حتى بمكتبه لألقي التحية، وهو أيضًا لم يحاول أن يدافع عن صداقتنا ضد اختلافاتنا، وكأنه كان فرحًا للتخلص مني، وأنا وجدت نفسي أتساءل مجددًا.. لما لا أزوره علّني أجد عنده ما يقلل من كآبتي.. فعتاب صديق قديم مهما يكن قاسيًا لا يقارن بمتاعب العمل والمرض معًا؟ لم يلبث تساؤلي إلا أن تحوّل إلى قرار تو أن أتاني الخبر من النقيب عبر الهاتف.

– محمود.. حركة تغييرات رؤساء تحرير المؤسسات نزلت.. سوري هاردلك.. إنت كاتب محترم، ومتفتكرش أبدًا إنهم بينكروا عطاءك من يوم ما الثورة قامت.. إنت ما زلت واحد من أهم الكوادر الإعلامية.

ابتسمت بمجرد أن سمعتها.. لا أدري أهو حمل آخر قد وُضع فوق ظهري المثقل أم أنه حمل قد أُزيح؟! لكن تفكيري في رؤية صلاح قد تحول لحظيًا ما إن نطق بها النقيب إلى قرار ملح.

وما إن اتخذت القرار حتى بدأت في تنفيذه.. قمت عن مكتبي متوجهًا إلى الخارج حيث جلست سكرتيرتي المسكينة يغلبها النعاس.

- صفاء.. فوقي.. أنا ماشي، إنتِ كمان يالاّ روّحي.

وفي صوت يشبه أصوات العائدين من الغيبوبة أجابت:

- الساعة لسه 8 يا أستاذ.. حضرتك قولت نستني الترويسه بعد تعديلها.

- ههه مش هتفرق خلاص.. يالاّ بينا.. الترويسه تمام،ومكانتش محتاجة حاجة علشان نستناها.

- بس حضرتك قولت..

- صفاء.. كفايه.. يا هتيجي أروّحك في سكتي يا هسيبك هنا تلعبي إنتِ في الترويسه زي ما انتِ عايزه.

جملتي الحاسمة جعلتها تُلملم أشياءها في ثوان.

وبينما كانت السيارة تسير في تؤده كانت الفتاة تتعمد الكلام معي.. ليست أشياء مهمة تلك التي تتفوّه بها، ولكنها فقط تتحدّث كي لا أنسى وجودها معي.. تريد لفت انتباهي، إنها الحقيقة التي اكتشفتها مؤخرًا، ولكن الشيء الذي لم أستطع اكتشافه هو السبب وراء محاولاتها تلك.. هل تحبني مثلًا؟! أستبعد ذلك فلا توجد فتاة في مثل سنها أيًا كانت عقليتها تستطيع أن تحب رجلًا بدينًا في أواخر العقد السادس من عمره يغطي الشيب ما تبقى من شعره ولم يسقط، ربما كانت تشفق على الرجل الوحيد

المريض الذي يرأسها.. أو ربما هي فقط مساعدة على درجة عالية من الكفاءة والتقدير.. أرجح ذلك وأقدره فيها إن كان صحيحًا.

– أستاذ محمود.. البيت عدّى!

أجفلت للحظة حين أدركت أنني سرحت بأفكاري، وكدت أحيد عن الطريق.

– آسف يا صفاء. أعتقد هتضطري ترجعي الشويه دول على رجلك.

– مفيش مشكله خالص.

– صفاء.. اعملي حسابك قبل ما تنزلي الشغل بكرا.. أنا اتشلت من رياسة التحرير..مش هيفضلّي غير العامود بتاعي..ده لو سابوهولي.. خلّي بالك من نفسك،واثبتي للراجل الجديد إنك كفء في مكانك، وانك مش تبع حد.. اكسبيه.

بهتت للحظةٍ ولم تجد ما ترد به على كلماتي سوى أن هزت رأسها بعنف، وتركتها ذاهبًا إلى صلاح، وأنا أتساءل إن كنت ساجدة في المنزل الآن،وإن كان سيرضى باستقبالي دون موعد، لا أنكر أن شعورًا ما بالرغبة في التراجع قد بدأ يدب في قلبي بعد إعادة التفكير،ولكن رغبتي في الخروج من جو الكآبة الذي فُرض عليَّ منذ أسابيع مضت،وقد تم اليوم بخبر إقالتي قد جعلني أتمادى، وأذهب.

وحين توقّفت سيارتي أمام باب البناية العتيقة التي يقطنها بالمعادي شعرت للوهلة الأولى أن شيئًا لم يتغير بها كأنني كنت هنا البارحة، مع اختلاف طفيف حيث لم أكن أستقل يومها تلك السيارة الفارهة، ولم أكن أتخيّل وقتها أنني في يوم سأستطيع امتلاك مثلها.

اقتربت من باب شقته، وأنا متوتر، ونظرتي ملتصقة بذلك البساط الصغير عند الباب، وقبل أن أدق الجرس كان الباب قد فتح.. لأول وهلة اعتقدت أن الباب قد فتح لاستقبالي فأجفلت، ولكن حين رأت عيني ما رأت تغيّر تفكيري تمامًا.

كانت في سبيلها للخروج.. فتاة، لا.. أقصد.. لا أعلم بما أصفها. هي فتاة لا يتجاوز عمرها العشرين تضع مساحيق ثقيلة على وجهها، وترتدي تنورة قصيرة أشك أن أي أب قد يترك ابنته لتغادر المنزل بها كان لها شعر غجري طويل، وابتسامة ساخرة.

حين رأتني ابتسمت، وقبل أن أجيب أنا الآخر بالابتسام وجدتها تقول:

– أهلا .. ثانية واحدة.

ثم أردفت بأعلى صوت تستطيعه:

– صلاااااااااااااااح.. ضيف مستنيك.

قالتها، وأكملت طريقها للخارج..خارج البناية، وخارج حدود رؤيتي، ولكن بالطبع ليس خارج حدود تفكيري.

ومن الداخل سمعت صوت صلاح المهمهم:

- ودا مين ده زبون آخر الليل؟!

وحين اقترب من الباب حيث رآني نظر إليّ لبضع ثوان دون تعبير محدّد،كأنه تصلّب على تلك الوضعية أو كأنه لا يعرف ما عساه يفعل.. أيرحب بي أم يطردني لقارعة الطريق؟ وفجأة دون مقدمات وجدته ينفجر في وجهي.

***

من وضعية المقص التي يتبدلها الجانشو و الجانشو دوس يقفان الى وضعية ثبات عنيفة حيث يزيد الجانشودوس العنيف من التعلق برقبة الجانشو فيضغط زراع الاول حول الثاني وينظر كلاهما في اتجاهان متعاكسان.

***

- محمود العجوز.. إزيك يا راجل.. يااااه افتكرتني أخيرًا.

- إزيك يا صلاح.. واحشني.

وقادني مُرحبًا بي بصدق على ما أعتقد إلى الداخل، شقته أيضًا كانت كما أتذكرها على ذات الطابع البوهيمي، والألوان الزاهية المميزة لعلم جامايكا.. كانت تلك الألوان الزاهية هي رمز الشباب، ولا أعلم لم قد استبدلها شباب تلك الأيام بالألوان القاتمة الكئيبة..

كنت أعتقد أن صلاح هو الآخر قد غيّر تلك الديكورات التي قد صارت عتيقة بعض الشي، ولكن على ما يبدو أن الكبر قد أصابه ليصبح شابًّا عجوزًا!!

إن ملامحه لم تتغيّر.. نبرات صوته قامته الطويلة، كل شيء فيه كما تركته، كأن الزمن لم يمر عليه، ولم يترك آثاره المؤسفة فوق جبينه أو تحت عينيه.. بل الأدهى إنه ليست لديه شعرة بيضاء واحدة..

- إيه يا راجل.. إيه شكلك عامل كده ليه زي اللي ماتله ميت؟

- السن بقى.. أمراض السن بعيد عنك.. ضغط وسكر و3 شرايين مسدودة.

- سن إيه يا راجل لسه بدري.. إنت راجل عيّل.

قالها وأخذ يضحك مقهقهًا.

كنت لأعتبرها إهانة غير أني أعلم تمامًا أنه لم يعن سبابي بل إن روحه المرحة هي من تتحدث بالنيابة عنه.

لكنه أردف محاولًا استجماع نبرة جادة لم ينجح في أدائها كليًّا.

- سوري يا محمود.. سوري.. إنت راجل لسه شباب.

- ولا يهمك..أنا فاهمك..بس انت بقى اللي متعرفش أمراض السن.. ما شاء الله شكلك لسه عيّل عنده 30 سنة.

قلتها ضاغطًا على كلمة (عيل) كي أرد الدعابة، ولكن آلت محاولتي السمجة إلى الفشل كما كان يحدث طوال الوقت بيننا مما أشعرني بالقليل من الحميمية.

– قل أعوذ برب الفلق.. جاي تزورني بعد 17 سنة علشان تحسدني.

– لا أبدًا والله.

– أومال جيت ليه.

***

يبدأ زوج البيلارين 1 في التمايل في اعداد 2–4–2 من جديد في هدوء و يحاول الجانشودوس الهروب بين كل عدتين إلى أن امساك الجانشو بكفه يجعله يتباعد ليستدير محوريا عائد إليه في كل مرة.

***

جاء سؤاله مباغتًا صريحًا يفتقر إلى الذوق في أسلوبه عاري من الابتسام أو التكلف.

– وحشتني يا أخي.. يضايقك إنك توحشني!

عادت الابتسامة إلى وجهه وهو يقول.

– شكلك مكتئب كده ليه.

- خدت بالك.. الكل واخد باله، وأنا أخيرًا خدت بالي، ونفسي أغيّر الوضع الكئيب ده في حياتي.

قام متوجهًا نحو دولاب صغير وقصير في طرف الصالة المربعة وأخرج منه زجاجتي صودا والويسكي الإستكتلندي الذي اشتهر بعشقه له وكوبان.. أنا أحفظ شكل ذلك الدولاب المنقوش على شكل برميل نبيذ بل أذكر متى اشتراه، وكيف كان يتباهى به بين زملائنا (أنا الوحيد فيكم اللي بقى عنده بار خصوصي) وضع الأشياء، ومن ثم أتى بدلو ثلج قصير "شامبانيير"، ووضعهم بيننا على الطاولة

- تاخد كاس ويسكي.. قليلًا منه يشفي المعده؟!

- إنت عارف اني مبشربش.

- لسّاك قفل زي ما انت متغيّرتش.

- إذا كنت إنت متغيّرتش.. عايزني أتغيّر ليه؟

- بس أنا فعلًا اتغيّرت.

قالها ملقيًا ذاته على الأريكة المقابلة لي رافعًا ساقه اليمنى لأعلى عليها:

- واتغيّرت إزّاي؟

قلتها مادًّا يدي إلى ملقط "الشامبانيير" ألتقم به قطعتي ثلج في كأس مع بعض الصودا.

- بطّلت أوجد أعذار للناس اللي حواليا.

- طيبة قلبك كانت ميزتك الوحيدة.

- سيبك مني.. ها إنت أخبارك إيه؟!

- يوووووه اتجوزت.. خلفت.. اتطلقت.. اترقيت لما بقيت رئيسك.. ومهانش عليك تجيبلي بوكيه فجل حتى.. لكن!

- هه؟

- أعتقد أن كل الجمل دي لازم تنتهي بكملة.. لكن!

حاولت تغيير الموضوع، ربما لا أريد أن أبدأ بالشكوى فيعتقد أنني جئت فقط لأني لا أملك سواه.. أو ربما هو خوف من الشماتة في وضعي بعد الإقالة.

- لكن.. قل لي مين البنت اللي لسّه خارجه من عندك دي؟

- دي عايده.. سكرتيرة واحد صاحبي..وشها بدعه سبحان الله الشعر الغجري مع الرقبة الطويله شفايفها اللي زي الفراولايه.. تخليك عايز..عايز.. تاكلها كل ده مكسور بأنف دقيق قوي مديها براءة وعين واسعه مدياها رهبة.. برسمها.. بورتريه ليّا بعيدًا عن شغل الجريدة.

- طول عمري بحسدك يا صلاح.. الفنان دايمًا ليه عين مختلفة عن كل الناس.. أنا مثلًا مشفتش فيها غير بنت متحرّرة منكوشة.

- عايز إيه يا محمود؟

قالها وهو يرشف من كأسه.

- منك؟ ولاّ من الدنيا؟

- مني ومن الدنيا؟!

- السعادة.. الدنيا سرقت سعادتي.. يوم ما سيبت الدنيا لدنيا غير.

- بريء، مباشر، رقيق، وغبي..غبي يا محمود..إنت اللي سيبت دنيتك باختيارك.. إحنا سيبنا الميدان سوا، وانت اللي اخترت مترجعلوش..

حاولت أن أدافع فوضعت كوب الصودا في عنف مستندًا بظهري على الكرسي الوثير واضعًا ساقًا على الأخرى لأحاول الظهور بمظهر القوي.

- الموضوع مالوش علاقه بالسياسة يا صلاح..مالوش علاقه بمين موالي، ومين معارض.. بلاش الكلام الأحمر ده.

- عايز رأيي.. لا أحمر، ولا فوشيا.. إحنا الاتنين كنا سوّا.. يقولوا ثوريين يقولوا آجنده يقولوا قابضين من الخواجة كنتاكي..مكانش بيهمنا، ولا حتى القضية كانت همانا قد ما كانت كلمة لأ مهمه بالنسبالنا.. إنت بطّلت تقول لأ.. اكتفيت إنك دايمًا بقيت آه.. حلو مطيع مؤدب منمق مدافع عن كل الحلوين المؤدبين المنمقين..إنت كنت عايز الهدوء، وأنا مكنش في حياتي، ولا صحوبيتي هدوء ففكّيت مني، وأنا سيبتك.. عزت تتجوز جوازه آمنة وتخلف عيال كيوت توديهم مدرسة تتباهى بيها وسط قرايبك وانت قاعد في النادي اللي اشتراكه مش عارف بكام، وحياتك تبقى هادية وناعمة.. بس الهدوء بيتحول لصمت.. أنا استنيتك تيجي تزورني لما اتطلقت.. لما عييت.. لكن إنت كنت تقيييل قوي.. تقيل إنك

مجتنيش إلا دلوقتي، وانت مخنوق، وبتعيّط من جوّاك زي الطفل علشان الهدوء، والصمت اتحولوا لفراغ لما رفدوك.. بعت كل حياتك علشان في الآخر تعيش اللي فاضلك في الفراغ تتشمس، بعت ببلاش يا محمود.

لقد انفجر ..كل ما كبته بقلبه لمدة سبعة عشر عامًا قد قاله الآن في وجهي.. ليس ثائرًا أو حانقًا ولكن عاقلًا لأقصى درجة يُشعرك صوته أنك أجرمت في حقه.. صحيح أنني لم أفهم نصف ما قال، ولم أستطع تمييز النصف الآخر من فرط توتره، وسرعة إلقائه،ولكن قلبي هو من سمع وليس أذني، ولكن على ما يبدو أن قلبي لم يتحمّل ما سمع.. أو هو ميعاد دوائي.. كانت دقّاته تتزايد.. ربما يقول العلم من شدة الانفعال، ولكن أنا أقول من شدة الصدق.

– صلاح.. ناولني كوباية المايه عايز آخد الدوا!

همّ الرجل مسرعًا لنجدتي بكوب الماء البارد، وكانت نظراته تحمل الذنب لما اعتقد أنه قد فعل بي.

يتوقف الجانشو عن الحركة في النهاية مرسلا يد الجانشو دوس رافعا يديه كحركات الفلامنكو و لا يتنازل عن حدة نظرته ويقابله الجانشودوس بالالتفاف حوله مساير ليلصق ظهره ببطن الاخر ناظر خلفه لاعلى فتطال ذقنه قبل ان يلف ذراعاه حول الثاني من جديد

- إنت كويّس؟!أنا هشغلّك شوية مزيكا..أعملك شاي..ولا أقولك.. عندي عصير لمون.. ثواني.

أشرت برأسي نعم، بينما كانت عيناي في شبه حالة من التخدير، وبدأت الموسيقى في العزف.. كأنها تأتي من الماضي! وبدأت أتذكر عما كان يحكي..يوم قررت أن أترك أفكاري في درج مكتبي، وأكف عن التحرّر، وعن البحث عن تغيير المجتمع والناس، والأفكار لأكون واحدًا آخر من هؤلاء الناس مؤمنًا بالحتمية متغافلًا عن دوري في الحياة مؤمنًا أن وجودي من عدمه لن يؤثر في دورها.

الواقع أن تلك العملية (التغيير) لم تبدأ قط في التوقيت الذي احتسبه هو بدأ كل شيء في بداية الألفية، مع أول ترقية كنت أعلم أني لا أستحقها.. مع أول عرض إعلامي إذاعي ومن ثم تليفزيوني.. نزولي إلى الميدان في 25 يناير جعل مني أيقونة ثورية، لكني كنت أعلم أنني لست كذلك،وأنني فقط أُجيد تمثيل الصورة التي أدّعيها.. علاقتي المتوترة بصلاح عادت قوية فقط في مدة الثورة، وحتى تولّي المجلس العسكري مقاليد الأمور.. قامت مظاهرات أخرى وأخرى وأحداث عديدة أدركت معها أن شيئًا لا يتغير حقيقة.. إنني فقط أؤدي الدور المنوط بي.. ما ظنه هو تغير حدث في سبع سنوات هو عملية مطولة استغرقتني سبعة عشر عاما منذ آخر زيارة منزلية قمت بها إليه عرضت عليه نعيم الحياة المغيبة يوم اكتشفت كيف أستطيع الاستمتاع بها، فرفض قانعًا بأن يكون هو صانع القرار في حياته لا المجتمع ولا الناس!

مرّت دقائق خمس كان شعوري بالموسيقى معها يختلف حيث بدأت أستعيد وعيي وقدرتي على الحركة بعد أن رشفت من العصير وعيناه معلقتان بي من الناحية الأخرى من الصالة إلى جانب السي دي بلاير وثلاثة أكواب موضوعة أمامي تصف حالي.. بين الماء عديم اللون والطعم.. الصودا الفوارة اللاذعة والليمون الحامض سكري الطعم.. كنت أحدهما في كل مرحلة من حياتي، والآن أنا لا أدرك أيهم هو أنا.

- صلاح.. فاكر لما كنا في الكلية، وكنت بتعلّمنا رقص السلو.. لسه بترقص؟!

- نعم؟! أكيد، ولو كنت عزمتني على فرحك كنت علّمتك شوية حركات بدل الفضايح اللي عملتها انت، والعروسة في السلو بتاعكوا..

ضحكت متذكرًا تحوّل ذيل فستانها إلى أسود من خطوي فوقه، ومحاولتها الدوران معي التي كادت أن تقع جرائها.. كنت أعلم أننا راقصان فاشلان.. لكن كل حضور الفرح أخبرنا أننا كنا رائعين.

- أنا بقى مرقصتش من يومها.. تيجي نُرقص!

ابتسم ردًا على عرضي قبل أن يقوم معي إلى مكان شبه خالٍ في الصالة حيث تأبّط كل منا ذراع الآخر، وبدأنا نتمايل معًا مع الموسيقى.

- تفتكر لو حد شاف إتنين رجاله واقفين يرقصو سلو مع بعض.. ههه هيقول علينا إيه؟

- لو شافونا بنرقص في صالة بيت ضلمه زي دي.. مش هيقول إتنين رجاله بيرقصوا.. مش هيقول رجاله أصلًا.

ضحك بينما تمتمت بصوت خافت لا يسمعه غيري (طب على الله ما حد يجيلك دلوقتي)، ولكني لم أكترث، فأنا أعلم أن أحدًا لن يرانا، وأغمضت عيني في محاولة مني للشعور بالموسيقى أكثر،وكأنني أريد احتضانها، ولكني جفلت حين شعرت بفمه يقترب من وجنتي اليسرى مُقبّلًا.

***

يميل الجانشو دوس بخاصرته إلى الخلف تو أن يستدير لمواجهة الجانشو، وكأنه يطالبه بحمايته من السقوط أو الميل أكثر نحوه لكن الجانشو يستجيب بغلق قدميه حول الجانشودوس ولف نصفه العلوي في نصف دائرة خارجية كاملة بهدوء قبل أن يرفعه إليه ويبدآن من جديد في التمايل البطيء.

***

– إيه ده؟

قلتها في صدمة حقيقية مبتعدًا عنه خطوة إلى الوراء، لكنه ظل ممسكًا بيدي متمايلًا مع الموسيقى.

– إسمها بوسه.. إيه؟ الناس بطلت تبوسك؟

– نعم؟! محدّش بيبوس حد كده من الباب للطاق.. مفيش رجاله بيبوسوا بعض يا صلاح.. الناس بيبوسوا بعض بس، وهم بيسلّموا.

– هم آه بيعملوا كده.. إنت بقى رأيك إيه؟.. رأيك إنت؟

تركني مرة أخرى متوجّهًا نحو أريكته العريضة وجلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى وهو يتكلم:

– ده بقى الفرق بيني وبينك.. أنا بعوز حاجة بعملها.. حسيت إنك واحشني، ومسلّمتش عليك كويس وانت داخل..عايز أبوسك.. فبوستك.. مش هفكر بقى الناس ممكن تفكر في إيه إزاي، والرجالة بتبوس بعض، ولا لأ، ولا كل الكلام الفارغ ده..أنا افتكرتك إنت كمان ابتديت تفكّر بحرية لما عرضت عليّا نقوم نرقص.

– إيه يا صلاح.. انت مستغرب إني مستغرب من فعل شاذ زي اللي انت عملته ده؟

قلتُها واقفًا في وسط الصالة متطلعًا إليه في استغراب حقيقي، وقد بدأ هو بتشويش عقلي كأنه إنسان جديد عليَّ كليًّا.

– أنا مش مستغرب استغرابك.. لكني كاره الأساس اللي انت استغربت على أساسه.. إنت اعتمدت على حكم الناس المجتمعي على البوسه علشان ترفضها.. عارف لو كنت انت اتضايقت من نفسك، وقولتلي (إيه القرف ده) ولا (غور يا جدع انت بلا شغل خـــ..) مثلًا.. كنت هعتذر لك. لكن انت.. محمود.. لا رفض ولا قبل ولا قرف ولا انبسط.. محمود سايب النمط هو اللي يقرر له.

بدأت أتخذ وضعية المحاضر أو الواعظ لا إراديًا كأنها عادة أمارسها دون وعي مجيبًا:

- أنا كفرد من مجتمع ودوجما أخلاقية ودينيه مش هعرف أعيش من غير ما أستقي النظام من المحددات اللي بيرسموهالي أنا ممكن أكون غلط أو أغلط من غيرهم..الأخلاق،والدين كمان مفيهومش معارض وموالي يا سي صلاح، وهم كمان ممكن يكونوا غلط بيك ومن غيرك.. إيه اللي أكد لك إن منظومتك الأخلاقية أو الدوجما بتاعتك صح؟

- مش فاهم إنت عايز إيه؟

قلتها، وجلست، وأنا في وضع يسمح لي أكثر بالاستماع لأول مره بشكل جدي هذه الليلة.

- اسمع يا محمود..إنت إنسان روتيني جدًّا شبه كل الناس، وبتتشبّه بكل الناس.. أقسم أنني مش هاخد بالي منك لو مشيت بين أي اتنين في ميدان التحرير.. منتاش بارز بنظرة أو علامة أو شخصية! إنسان مؤدب.. متخانقش مع حد من زملائه.. مبيخالفش القانون.. عمره ما بيناقش رؤساؤه.. اتجوز اللي أمه اختارتهاله، وطلقها لما هي طلبت الطلاق من غير مشاكل.. بيزور ابنه كل ويك اند.. مواظب على أدوية الدكاتره بتوعه.. حاضر وطيب ومثالية مُدّعاه.. حتى لو كنت إنت مصدّقها.. بس فين محمود الحقيقي.. هل محمود هو النمطي المثالي اللي قدامي ده، ولا محمود بقى مجرد ضِل لحد معادش موجود؟

- وانت عايزني أبقى مُجرم مثلًا علشان أعجبك، وتشوفني مُتحرّر؟

- آه..ليه لأ..لو جوّاك مجرم..تُمارس جرايمك لحد ما انت تقرّر تهذّب نفسك.. إنت مش المجتمع.. إنت فاكر نفسك مثالي؟.. إنت مش مثالي يا محمود..إيه الحلو في اللي انت فيه ده.. محترم ومثالي..هأ.. محترم ومثالي وتابع لأسياده، ومريض ومطلق ومرفود وبتموت.. بُص على المتحرّر الصايع السُكري بتاع النسوان.. حر.. مش مريض.. ميهمنيش شغلانه من التانيه، ولا حاطط قيمه لمراكز اجتماعية ورق.. سليم، وبصحتي، وكأني لسه عندي عشرين سنة.

- بس لّما أموت.. هتفضل سيرتي الطيبه على كل لسان.

- افهم يا غبي مفيش عمل طيب في حياتك هيتنسب لك بعد ما تموت.. كل الحاجات اللي انت عملتها هتتنسب للنظام اللي انت أطاعته مش ليك انت، وحتى لو نسبولك حاجة طيبة.. هيفتكروهالك ويفتكروك كام سنة بعد ما تموت.. 10..20..30..كسبت انت بيهم إيه؟

كنت قد جلست في أثناء حديثنا كما ذكرت سلفًا، وتبادلنا الوقوف والجلوس أكثر من مرة.. كان انفعالًا يشبه الشجار وإن كانت أصواتنا هادئة. تابع هو حديثه متضاحكًا:

- فاكر مشكلة سعيد السراكي.. لما النعي بتاعه نزل عندنا بغلطه مطبعيه.. اتكتب سعد السركي.. النعي كان مليان معلومات..رئيس جمعية مش عارف إيه.. بيحاضر في جامعة كذا، وحاصل على الأستاذية من فين

وصاحب مؤسسة مش عارف إزاي.. معلومات وإنجازات وهلمه.. اتكتب كلها باسم سعد السركي.. اللي قرا معرفش مين سعد السركي، واللي يعرف سعيد السركي معرفش إن دي إنجازاته.. غلطه في حرف محت إنجازات زي الإنجازات اللي انت بتتكلم فيها.. غلطه في نعي اليوم عمرها ما هتتصلّح،وعمر تصليحها ما هيبقى له معنى،ولا لازمة في نعي تاني يوم..

تذكّرت تلك المشكلة البسيطة التي تسبّبت في أزمة حقيقية نتيجة ضيق أبناء سعيد السركي من تلك الغلطة المطبعية، وانتبهت أنني بالفعل لم أعد الغلطة في النعي وكان رد فعلي المتأخر بلا قيمة.

في النهاية بعد أن جلس كلانا، واستغرقنا في الصمت لدقائق عدت فيها لملء الكأس بالصودا المثلجة، وملأ هو كأسه بالويسكي مجددًا بدون ثلج أو صودا.

- صلاح.. انت عرفت تفاصيل جوازي وطلاقي وزيارات ابني ومرضي منين؟ إنت كنت بتتجسّس عليّا؟!

- آه.. مثال على الفعل الإجرامي أهه..

ابتسم في رده متحديًا إياي:

- ليه؟ وإزاي؟

كنت عايز أطمن عليك.. أنا مبقولش إني كامل، ومبقولش إني بطّلت أعتبرك صاحبي، وكنت عارف باستمرار إنك محتاج حد جنبك..صفاء.. تبقى بنت أختي رقيه.. أنا اللي اتوسّطت في تعيينها،وأنا اللي كنت بوصّيها تفضل جنبك، وكنت بعرف أخبارك منها أول بأول.

– كنت موجود طول الوقت بتراقب، وأنا اللي كنت فاكرها بتحبني قال.

قلتها ساخرًا من ذاتي مداعبًا كأس العصير مع شعور متنامٍ بغبائي الشديد.

– براقب وبطّمن.. كنا عارفين إنك فاهم كده، وسيبناك تعتقد إنها بتحبك.. قولنا أهو أي شعور إنساني يخليك مبسوط وسط الهم اللي انت فيه.

– ورأيك أعمل إيه يا صلاح.

– متعملش العملية.. فُك الحصار بتاعك وأهي جت منهم ومسؤلياتك تقريبًا بقت معدومة خُد أجازة من الشغل.. سافر شوية.. انبسط، وفرفش وادي لنفسك فرصة تتصرّف كبني آدم يغلط، ويهبّل ويندم، ويتوب.

–وإن مت؟!

– هتموت حُر، وساعتها أوعدك.. هزور قبرك كل يوم، واشرب على روحك كاسين ويسكي شيفاز من اللي عمرك ما فكّرت تدوقه.

***

عُدت من الإجازة متأخرًا يومين عن ميعادي المحدد.. كنت على عكس المتوقّع أشعر بالنشاط يملؤني، وكأني أصغر عشرين عامًا.

مليء بالنشاط كنت أسير في الرواق نحو مكتبي الجديد الذي لم آبه كثيرًا عندما أخبرني الأمن عن مكانه تو أن دخلت المبنى.. فكّرت لوهلة أن

أمُر بمكتب صلاح، ولكنني عدلت عن رأيي مُفضلًا أن أمُر عليه لأصطحبه بعد العمل، كانت لنصيحته أكبر الأثر على نفسيتي وصحتي.. بل إنني قد بدأت جديًا في التفكير في حضانة ولدي، ولِمَ لا أنا أريده بجانبي، وليس عليَّ أن أراعي حاجة أمه إليه.. هي من تركني على أي حال دون سبب أو خطأ مني. لكني قررت أن أمر بمكتب صفاء.. عليَّ تحيتها وشكرها على ما قامت به تجاهي بإيعاذ من خالها طوال السنوات الماضية.

حين دخلت مكتبي القديم وجدتها صامتة في شرود غير عادي.

– صفاء.. صباح الفل.. مالك؟

حاولت أن تقاوم الرد أو أن ترد رد مجامل مقتضب لكنها لم تتمالك نفسها، وجاوبتني، وقد بدأت فعليًا في البكاء.

– أستاذ محمود.. حمد لله على السلامة.. خالو صلاح.. تعيش إنت.. اتوفى من كام يوم.. البقية في حياتك.

بعد ان يستقر الجانشو في حركته البطيئة الرباعية يرفع الجانشودوس يديه نحو عنق الجانشو وكأنه يتسلقه، يترك الجانشو ذراع الجانشودوس و خاصرته فيستدير تارك إياه في هدوء.

***

لا أعلم ماذا عليّ فعله أو قوله، ولكن كل ما أردت أن أتفوّه به هو (يا ابن الكلب يا صلاح... ليه؟) تتركني بعد أن أقنعتني بالفكرة .. هل أنا على قيد الحياة حتى الآن إثباتًا لنظريته أم مات هو دون سبب نقضًا لها؟ هل تحرّرت أنا من قيدي أم تحرّر هو من الحياة؟! لماذا الآن، أي نوع من الهوس هو ذلك؟ صحيح أنني قرأت أن هناك ما يُدعى تانجو هوموزيناليّ أو تانجو الجنس الواحد، لكنني لم أتخيل قط أن أرى رجلين يتراقصان التانجو الحميمي بهذه القوة، والحياد الجنسي.. كان الأمر مُربكًا، لكني لا أنكر أنه كان اتّخاذًا جميلًا، وللمرة الثانية فقد رأيت كل لكمه تؤدّي في كل حركة من الرقصة.

***

في ثقة قمت أنا متوجهًا إلى الميكروفون أعلن عن المقطوعة الثالثة في التاندا الأولى.

كونتاكتو تانجو.

***

كونتاكتو تانجو

التقط مني الميكروفون في هدوء ومن ثم بدأ بإلقاء التعريف.. صار الأمر تكراريًا معروفًا، وإن ظل تثقيفيًا جدًا، وتقدّم راقصان جديدان.

هو نوع التانجو الذي نشأ عن النسخ الأقدم، ويتأثر به بشدة في وضعياته الثلاث الرئيسة (مفتوح لمغلق، مغلق لمغلق، مغلق لمفتوح) كما أنه تأثّر بالتيار الارتجالي في الرقص حيث لا يكون الرجل بالضرورة هو قائد الرقصة، وتكون الراقصة تابعة للحركة. فيتبادل كلاهما الأدوار بشكل قد يبدو ارتجالي متناغم ولذا ينتشر رقصه بين الهواة والمحترفين على حد سواء، وبه كثير من الحسية الطبيعية. نتمايل مع نغمات " بيساميه موتشو"، كتبتها المكسيكية كونسويلو فيلازكيز عام **1940**، وتعني (قبّلني كثيرًا)، والأغنية مستوحاة من حياة الكاتبة ذاتها، التي كانت تتوق إلى الحب، حيث لم يُقبّلها أحد قبلًا بالفعل، ونستمع إلى نسخة فرنسية نادرة منها بصوت الكروان الفرنسي كونستانتين تينو روسي من تسجيل نادر بكلومبيا عام **1945** أيضًا .

كانت الضوضاء العالية تمنعني من الاستمتاع بالجو البهيج للحفل من حولي، الفتيات المتمايلات مع الموسيقى هنا وهناك بحثًا عن عريس محتمل قد يلاحظ أنوثتهن المبالغة، والمطرب الذي جمع بين العروس،والعريس ليرقصا، ويغنيا عوضًا عن إنهاك أحباله الصوتية معهما،الزغاريد من حولي تكاد تصم أذني؛ ولذلك كنت قد قرّرت أخيرًا التخلّي عن الجو المرح للحفل للتمتّع قليلًا بجو الوحدة الخلص بي، ولذا انسحبت دون أن يلاحظني أحد، وكيف لأحد أن يلاحظني وسط هذه الضوضاء؟!

على أية حال توجّهت إلى خارج القاعة حين قابلت نادلًا سألته عن مكان أستطيع الجلوس فيه في هذا الفندق حيث أستطيع شرب أي مشروب في هدوء، وذهبت حيث وجّهني الفتى. حين رأيت كلمة بار مكتوبة على البوابة الضيقة نوعًا ما خفت للحظه من أن أعبر إلى الداخل ولكن شيء ما بداخلي قال لي إنني لن أكتشف الفرق بين الجنة والنار إذا عبرت هذا الباب، ولذا عدلت من وضع التيربون فوق رأسي للمرة العاشرة، وخطوت في ثقة إلى الداخل، وجلست على أول طاولة استطعت أن أميّزها في ظلام المكان.

***

من وضعية الثبات تبدأ الجنشادا في الحركة وحيدة.

***

حين اعتادت عيني تلك الإضاءة الخافتة استطعت أخيرًا أن أقرّر أن المكان ليس مُخيفًا كما ينبيء عنه اسمه.. هو بار صغير، وبضع طاولات ثم حلبة رقص ضيقة نوعًا يتمايل عليها عدد من الرجال والنساء في انسجام مع الموسيقى الهادئة.

طلبت كوبًا من العصير، عدّلت من وضعيتي بحيث أجلس في أكثر وضعية غير مريحة لأضمن ألا يتجعد قماش فستان السهرة غالي الثمن الذي ارتديته فالساتان كائن حساس.. ربما نحن النسوة نحب الساتان، ونعامله كحيوان منزلي اليف، بدأت أرشف من الكوب الذي أتاني به الفتى، وحين انتهى الكوب، كنت بدأت أشعر أن وقت الراحة قد انتهى، وآن الأوان لكي أعود إلى زفاف صديقتي الذي تركته، ولكن شيء ما جعلني أعرض عن القيام تابعت الراقصين قليلًا، ولا أنكر شعور بالحسد تسلل إليّ.. دائمًا ما رأيت الرقص نوعًا من أنواع التعبير الشعوري الراقي.. لم أرَ فيه هذا الابتذال الذي يراه به الآخرون.. لم أؤدّه قط بتلك الطريقة المستفزة التي تمارس في الأفراح.. انتظرت كأني أنتظر من يدعوني للرقص، وكأني بانتظار شيء ما أو شخص ما..

***

من العدم يظهر الجانشو،ويتقدم في سرعة من الجانشادا ساحبًا يمناها فتستدير حول ذراعها، وتقابل يسراها يمناه قبل أن تعتدل في وضع الرقص البدائي.

- شخص ما!!

قلتها في تعجب، وأنا أراه يدلف من الباب إنه آخر إنسان توقّعت أن أراه أو قل تمنّيت أن أراه.

بدا وسيمًا كعادته.. وسيمًا لدرجة أن كل الفتيات والنساء في القاعة تلفتن لرؤيته.. كان ذلك يضايقني قبلًا، ولكني قرّرت أن ذلك لم يعد يهمني الآن، ويجب أن لا أجعله يراني هو الآخر، وحين هممت بالقيام اكتشفت أنه جلس على البار الصغير إلى جانب الباب، ولم يعد باستطاعتي سوى أن أتمنى أن يقوم أو يستدير بوجهه للناحية الأخرى لأفر منه، ولكن كان الأمر يبدو شبه مستحيل، حيث إنه يكلم فتى البار كأنهم أصدقاء.. يشير بيده إلى معظم من بالمكان محييًا.. إنه لن يقوم إلا في آخر الليل كما يبدو، ولا مهرب لي للحركة دون أن يلاحظني.

قضيت دقيقتين أو يزيد في توتر.. فليس من الطبيعي أن أكون أنا، وزوجي السابق في مكان ما دون أن يحدث شيء.. أي شيء، ثم أنا لا أعرف ماذا سوف تكون ردة فعله لرؤيتي.

أخيرًا قرّرت أن الوضع ليس سيئًا كما يبدو عليه ما دام هو لا يشعر بوجودي، وعندها بدأت أختلس إليه النظرات في ثقة أكبر، كان يرتدي تلك البذلة الرمادية.. أنا أتذكّر تلك البذلة إنها المفضلة لديه، وأنا من اشتراها له.. يومها كانت عزة صديقتي معي،وأنا اشتريها.. يومها أظهرت إعجابًا كبيرًا بالبذلة، ولا أنسى حين قالت:

(والله مش عارفة أحسده على البدلة ولا أحسدك عليه وع البدلة).

وبدت الكلمة في غاية الإضحاك للمرة الأولى.. فأنا بصفتي امرأة غيور لم أضحك حين سمعتها أول مرة، ولكني وجدت نفسي الآن أضحك في شكل هستيري لم أحسب عواقبه.. ضحك نبّه الناس من حولي، وخصوصًا من لم أكن أريده أن ينتبه.

وجدت ابتسامة عريضة ترتسم على وجهه من مكانه غير البعيد، وبثقة وجدته يقوم متجهًا إليّ محاكيًا الفتى خلف البار.

- خلف.. هاتلي كوبايتي على الترابيزه اللي هناك دي.

وحين أنهى كلمته كان بالفعل قد وصل عندي.

- مرفت.. إزيّك.. وحشاني.

- إزيك يا هشام.

- زي الفل.. جدًّا.

قالها بينما كان يسحب كرسيًّا لنفسه، ويجلس مع وصول الفتى بكأسه، وطبق صغير من الفستق، والسوداني.

- إيه دا.. إنت ناوي تقعد، ولا إيه؟ أنا مبقعدش مع رجاله غُرب.

- ياه.. خلاص أنا بقيت رجاله غُرب.

جلس على أية حال، واستدرت بوجهي للناحية الثانية.

ومرت دقيقة كأنها ساعة من الزمن كنت أتوجّه خلالها بنظري عن تعمّد إلى أي شخص آخر حولي سواه عالمة أنه يتفحّصني بناظريه عن كثب كأنه يراني لأول مرة وحين نفد صبري وجدتني أقول:

– هو انت لسه زي ما انت؟.. بتبصلي كدا ليه؟

– أبدًا..بفكّر نفسي قد إيه إنتِ جميلة.

وجدتني ابتسم بالرغم من شعوري بالضيق.. فبالرغم من كل شيء، فإن مغازلته لي لا أشعر تجاهها بالحرج فهو زوجي..أقصد كان.

– لساك بتعرف تقول كلام حلو.. بس الحلو ميكملش..مليان عيوب.

– سيبك من العيوب..بقول كلام حلو..ده بس اللي سمعته ومسمعتش ومش هسمع الباقي.

رجع بظهره للوراء في أريحية تامة مع جملته رافعًا يده بالكأس الخاوية ليراه النادل الذي لم يتأخر في تحضير كأس أخرى ردًا على طلبه غير المنطوق.

***

الجانشو يشعر بالقوة كل حركاته تعتمد على الرفع و الدفع، الجنشادا تقاوم حركات قدميه السريعتين بين متابعة حركات القدمين، وإمساك يديه بقوة خشية الوقوع فهو يتحكم بها كليًا.

***

- وده أكبر عيب فيك.. إلا قولي أخبارها إيه؟ كان اسمها إيه؟.. سحر باين؟!

- يااااه..سيبنا بعض من زماان..إنسانة لا تُطاق..شبهك في كل حاجة.

نظرت نحوه في امتعاض، وقبل أن أنبس ببنت شفة أردف هو:

- شبهك في كل حاجة إلا مميزاتك.

وجدتني أضحك مجددًا.

- على العموم دي كانت البني آدم الوحيد اللي ممكن يستحمل يعيش معاك.

- الموضوع مش مين يستحمل ومين لأ..الموضوع إننا نبقى متفاهمين.

- واحنا كنا متفاهمين؟

بدا السؤال استجدائيًا بالرغم من أنه بدر مني على سبيل الاستفهام المحض، فأجابني هو مقررًا.

- لكننا مستحملناش بعض.

- أنا استحملت خياناتك المستمرة.

- قصدك أنا استحملت شكّك المتواصل.

- هشام.. إحنا بنتخانق.

قلت في حنق حين وجدت أن نبرتينا تعلوان:

- أنا لست هنا للشجار، ولا أريد اجترار الماضي من الأساس.

لكنه استجاب بضحكة عالية محاولًا تهدئة ردّة فعلي، الشيء الذي نجح فيه نسبيًّا، رفع الكأس الجديدة ليرشف منها.

- إنت بقيت بتشرب كتير.. كنت بتوعدني زمان إنك تبطّل.. ده أيام ما كان كاس كل كام يوم..حاليًا أنا شافيه كاس ورا التاني، بقيت سُكري.

ضحك ووضع الكأس أمامه.

- وآدي الكاس.. من الواضح إنك إنتِ كمان بقيتي شيخه، ولابسه عِمّه على راسك أهه.

لا إراديًّا امتدت يدي إلى التيربون لأعدل وضعه ربما للمرة الألف.

في الواقع أنا لم أتعلم بعد كيفية التعامل مع غطاء الرأس أو الحجاب أو أيًّا كان مسماه. لكنه كان ضروريًّا لي بعد الطلاق، ولا أعلم ولم أفكر قبلًا إن كنت ارتديته حقًّا لأني أريد ارتداءه.

- ما تيجي نرقص.

باغتني طلبه.

- لا.. أنا لازم أقوم.

- رقصة واحدة بس وامشي pleeeeeeease مش سامعه.. بيعزفوا أغنيتنا!!!

كان هناك صوت يصرخ بداخلي.. ما الذي يفعله هذا الرجل؟

- إحنا عمر ما كان لينا أغنية.

- عارف عارف.. بس هم بيقولوا كده في الأفلام..قومي قومي.

ونزولًا على رغبته وجدت نفسي أتوجه بصحبته إلى الحلبة، وقبل أن يضع ذراعه حول خصري لاحظت أن تلك هي المرة الأولى التي أرقص فيها منذ ثلاث سنوات.

***

وضعية الحمل المطلق يرفع الجانشو جنشادته من يديها وخاصرتها بأعلى رأسه ومن ثم تستقر فوق كتفيه، سيكون عليها الالتفاف نزولا حول جسده.. يتطلب ذلك ثقة عمياء منها.

***

- أيوه هي كده.

- هه؟! هي إيه؟

- دي أول مرة أي حد فينا يرقص من يوم ما اتطلقنا.

- عرفت منين إني بفكر في كده.

- لو أنا معرفتش بتفكري في إيه.. مين يعرف؟!

- هشام ..إنت بتعمل كده ليه.. إيه دور الرقّة ده؟

- لا رقة ولا يحزنون.. إنتِ بس حاسة إني رقيق.. علشان واحشك.

وبدأت أندمج مع الموسيقى متناسية الكلمات التي قالها كأني لم أسمع منها حرفًا واحدًا، وكأني أهرب من الاعتراف بذلك! ووجدتني أشرد من جديد.

– إيه سرحانة في إيه، ولاّ بتتجاهليني؟!

– بتجاهلك!

وضحك قبل أن يقول:

– بس لسه بترقصي كويس.. إيه كنتي بترقصي مع مين الفترة اللي فاتت؟

لم يعجبني اتهامه رغم أنني أعلم أنه لا يعنيه، ولكنه فقط يريد إغاظتي، لكني كنت أعلم أيضًا أن لا حق له في السؤال.

– متتذاكاش يا أستاذ هشام.

– حاضر يا مدام هشام.

أجفلت حين تفوه بتلك الكلمة كما أجفل هو فإن (مدام هشام) هو الاسم الذي اعتاد أن يناديني به حين نمزح.

– سوري.. طلعت مني بشكل عفوي.

في توتر ملحوظ قلت له:

– عادي..عادي مفيش حاجة.

وشردت مجددًا، وأنا أفكر كيف استطعت الانفصال عن هشام.. كنت متيمة به أيام الجامعة.. لقد كان صديقي المفضل قبل أن يصبح خطيبي ثم زوجي ونسيت نفسي بين ذراعيه.. ربما كنت أشعر بما يحدث، ولكن شيئًا ما جعلني أتناسى أنه خطأ فادح.

***

قبل أن تهم هي بالحركة حول جسده نزولًا يعيد رفعها ليديره في الوضع الافقي مستعرضا لتسقط امامه لا يرفعها سوى زراعاه . يحرر الجانشو ساقها لتجلس على الأرض و من ثم بيمناه يبدا في إدارة جسدها الجالس على الأرض من محور يمناها.

***

حين كان يزيد من ضغط يديه اليمنى حول خصري فما كان مني إلا أن وجدت رأسي يستند على ذراعه اليمنى، ووجدت نفسي أتساءل: هل حقًا مرّت ثلاث سنوات؟ وهنا شيء ما استيقظ بداخلي وجعلني أنتفض مبتعدة عنه.. لم أتركه ولكني فقط ابتعدت عن جسده بمسافة مناسبة بينما كانت عيناي معلقتين بعينيه في حيرة.. عينيه اللتين كانتا تنظران نحوي بحنان واضح، وهو يقول:

– عارفه يا مرفت.. بقالي فتره بحاول أفكر إحنا اتطلقنا ليه !.. فاكره؟

– طبعًا.. اتطلّقنا علشان.. لما.. علشان..

وحاولت جاهدة أن أتذكر لما بالطبع ليس السبب العام وهو سلوكياته المريبة مع النساء ولكن السبب المباشر.. هل تشاجرنا؟ هل ألقى عليَّ اليمين ببساطة؟ ولكني بصراحة لم أستطع استرجاع تلك الذكرى، قام عقلي بمحوها أو ربما حجبها عني تمامًا، فما كان مني أن تبادلت معه ابتسامة تحولت في ثوانٍ إلى ضحكات عالية!

– أخبار عزة إيه؟

– واشمعنى عزة بالذات؟

– مش واخدة بالك إنها الوحيدة اللي مشكّتيش فيّا معاها.

– طبعًا لأ.. عزة صحبتي الأنتيم، ومتربيين سوا..إتجوّزت من سنه ومن ساعتها وأنا حاسة بفراغ.

– بس كده أحسن لها، وبعدين السعودية مش وحشة، ودكتور محمد راجل محترم وعريس ممتاز.

– إيه ده انت عارف منين إنها في السعودية وانـــ..

– أنا اللي نصحتها توافق.. كان لسه عندها أمل فيّا.. بس أنا اللي قولتلها متنتظرش حاجة لا يمكن تحصل.

– عزة؟!

لا أنكر أن الصدمة ألجمتني حتى أنني توقفت عن التمايل مع الموسيقى غير عالمة أعليَّ أن أحزن أم أشعر بالخيبة الشديدة أو إن كان عليَّ الاتصال بها فورًا؟!..

بدأت أرقص من جديد وشردت بذهني عزة كانت تعرف كل شيء عن هشام وكل تفصيلة من تفاصيل حياتي مع هشام.. كانت تريد الاقتران بزوجي.. زوجي.. بدأت لأول مرة أقتنع أنني لم أكن أشك في هشام إلا بإيعاز من عزه.. هل يعقل أن..؟!

- مرفت.. مرفت.. الأغنية خلصت.

رجعت إلى أرض الواقع من جديد على كلماته تلك بينما كنت ما زلت أتمايل على موسيقى لم تعد مسموعة، وتوجه بي إلى الطاولة من جديد وجلست، وأنا أجمع ما اعتقدت أنه بعض الحقائق حول عزة وهشام وعلاقتي بهما ظل واقفًا يرمقني.

- طيب..ميرسي يا مرفت..أنا خدت كتير من وقتك، ولازم أسيبك بقى.

- لا إطلاقًا.. اقعد شويه.. نتكلم.. قوللي بقى إيه موضوع عزة. انتوا كنتوا بتكلموا بعض؟

جلس سريعًا كأنه كان بانتظار أن أدعوه للجلوس، وأخذ يخبرني.. ليست بحكايات كثيرة، ولكنني أدّعي أنها حكايات مؤثرة.. على الأقل أثّرت سلبًا على حياتي مع هشام.

- بس يا ستي آدي كل الحكاية.. فضلت تتصل وتتصل على أمل لحد ما يئست، واتجوزت دكتور محمد..

***

يستعيد كل من الجانشو و الجانشادا ربطة جأشهما و يبدأن في التمايل مجددًا بهدوء في كريشندو تصاعدي حركي غير عنيف.

***

- ارتاحتي؟!

- بالعكس.. حاسة إني كنت غبية قوي.

- واو.. بتعترفي بالغلط.. تقدّم ملحوظ،واختلاف جذري يا مدام. وقدام اعترافك ده..خلّيني أنا كمان أعترفلك إن أحيانًا..مرات قليلة قوي..كان شكّك في محله.. بس خيانة خيانة.. عمري ما خونتك.. بس الواحد مبيتعلمش ببلاش آديني خدت الدرس.

- درس؟

- وهو طلاقنا مش درس، ودرس قاسي كمان؟!

تبادلنا النظرات.. أو بالأحرى ظلت عيوننا معلقة أحدنا بالآخر، لا أدري لكم من الوقت، تبادلت العيون باقي الكلمات التي لم نستطع تبادلها، وفي النهاية بعد برهة أو ساعة لا أعلم بالضبط وجدته يقول بصوت مكتوم وكأنه يهاب أن أسمعه.

- دلوقتي؟

- موافقة..

قلتها في سرعة مباغتة حتى قبل أن أتأكد من مقصده، ولكني كنت قد شعرت للحظة بالحنين إليه..

- تفتكري ممكن تبقى نزوة.. أو فورة جنون؟

- يمكن.. مش عارفة.. بس حابّه أجرب.

كنت أضحك.. لا أعلم لِمَ.. لم أستشعر الضحكة في شفتيّ.. بل شعرتها بعيني.. شعرت بتجعيدة عيني شبه المنغلقة من الضحك تمنعني عن الرؤية، وكنت راضية بهذا.. أن احتفظ بآخر صورة التقطتها عيناي حين وافقت لأظل أضحك بعدها أبدًا.

حين عدت إلى قاعة الفرح كان الجميع ينظر نحوي..كانت خطواتي واثقة، وقد أمسكت التيربون بيدي عوضًا عن حقيبة يدي واليد الأخرى كانت منشغلة أيضًا فأنا لم أعد وحيدة كما خرجت، كنت أتأبط ذراعه، كأنه طوق النجاة الذي ظللت أبحث عنه لثلاث سنوات، وبثقة توجّهت به إلى (كوشة) العرس، وعرّفته بعريس صديقتي:

- الأستاذ هشام سليمان.

قاطعني قائلًا:

- وحرمه!!!

أكدت جملته ونظرة الاستغراب التي تملؤها السعادة مرتسمة على وجه العروس كانت تشجعني.

- وحرمه؟!

لا أدّعي إننا عشنا بسعادة بالغة لبقية العمر، ولكن أقول بثقة إنني عشت مع إنسان يستطيع أن يُنسيني كل همومي، وأستطيع أن أُنسيه كل مشكلاته حين يتأبط ذراعي للرقص.

***

يتبدل الهدوء إلى استدارة سريعة منها حول جسده مطلقة ساقها اليمنى كالجراندكار ليحمل هو تلك الساق بيسراه مائلًا للخلف فتنام برأسها على صدره.

***

انتهت الرقصة وتلاها تصفيق حاد، ولا أعلم إن كان الجميع قد قام بالتصفيق للراقصين اللذين أدّيا رقصة تانجو كلاسيكية بها عذوبة التانجو واستعراضيته البهلوانية أم هم فقط يُصفقون لأن المعارك الثلاث قد انتهت وحان وقت الراحة..كورتينا[5]..هكذا تعلمت..التاندا هي كفصل المسرحية مكون من ثلاث مقطوعات والكورتينا هي استراحة بين الفصول.. ربما لتناول شيء خفيف ولاحتساء شراب مهدّيء.. قام الجميع عن مجالسهم متوجهين إلى أبعد ركن في الحديقة حيث فردت طاولة تحوي المقبلات والمشروبات وهممتُ أن أذهب أنا الآخر..إلا أن فريدي نظر نحوي.. وقال لي بعيدًا عن المايك

[5] – استراحة و الترجمة الحرفية ستار بمعنى نزول الستار على المسرح

- ها.. هتشرب ايه في الكورتينا؟

- هو في إيه في الـــ..

نظر لي لائمًا.. ففهمت.. أدرت الأوراق بين يدي حتى أخرجت ورقة كورتينا من الكورتينات الزرقاء.. كُتب عليها قهوة.

ابتسم ونادى في الجمع بآخر الحديقة:

"Café"

فابتسموا جميعًا وبدؤوا في تناول الفناجين، ومتابعتي من جديد..

وجدت الميكروفون في يدي، وورقة القهوة في اليد الأخرى في دعوة صريحة لي للقراءة، وبينما رأيت استريد تقترب بفنجانين أحسبهما لي ولفريدي..بدأت في قراءة "القهوة" على أذن من يحتسونها بكامل تركيزهم معي.

***

قهوة Café

حينما رفعت الفنجان تجاه فمها الدقيق، وددت لو أستطيع أن أمنعها من ارتشاف قهوتها.

- القهوة لا تناسبكِ إطلاقًا.. الشعر المصفف بعناية، ألوان الملابس التي تتمايز وتتماهى بين درجات الأحمر لبتلات زهور تسبح في اللون السكري.. يداك الدقيقتان اللتان خلتا من الحُلي عدا ذلك السوار الوحيد الذي تدلى منه حرف (إم).

بالتأكيد أنتِ لستِ فتاة تصلح للقهوة! ربما حري بك أن تشربي القرفة أو حري بك أن تُبدّلي ملابسك بشكل آخر يتناسب، وجلال القهوة التي تطلبينها!

شاربو القهوة في الغالب يرتدون الألوان الحادة المباشرة. تداخل ألوان ملابسهم يُعلن عن مزاجية شخصياتهم،طول أصابعهم وحدتها نبرة أصواتهم وعاجية أسنانهم تخبر دائمًا عن بحثهم عن الطرق ذات الاتجاه الواحد والأشياء ذات التفاصيل الأقل. لا يحبون تخفّي المذاق في السكر، ولذا يُفضلونها.. أنتِ أجمل من ذلك.. أنتِ أرق!

صمتت مبهوتة بعد أن استجمعت قواي، وقمت مواجهًا إياها بما أرى في قهوتها، وتناسبها مع ما تبدو هي عليه، مبهوتة حتى أنها قد أصابها الشك إن كانت قد سمعتني أو أنها تراني بشكل صحيح.

امتدت يدها لتخلع العوينات المستديرة عن وجهها لأرى عينيها لأول مرة.

هاتين العينين الخضراوين الواسعتين الشبيهتين بعيون القطط.. ذكية، ومُتحفّزة تستطيع أن تدّعي البراءة متى شاءت، وتستطيع أن تفترسك في أحيان أخرى لمجرد اللهو.

مع دخول أخضر عينيها إلى كيانها في نظري، بدأت وجهتي تتغيّر.. حتى القرفة لم تعد تناسبها.. الأخضر في مظهرها جعل الأحمر في ملابسها يتضاءل حتى صار كالأشباح، وسطع السكري ليضيء عينيها، وتصبح أشبه بالجنّيات.. بالتأكيد الجنيات لا يشربن القهوة، وبالتأكيد هن لا يشربن القرفة أيضًا.. عليَّ أن أُبدّل كلماتي لها..ألّا أقودها نحو مشروب آخر خاطيء.. قرّرت أن حورية كتلك بالتأكيد لن تشرب إلا مشروبًا ناعمًا غنيًّا كعصير الموز، وعيناها هاتان لا ترتشفان إلا مشروبًا حادًّا كالحامض.. إنه كوكتيل البرتقال، والموز المحلى بالعسل.

بالتأكيد مخلوقة كتلك لن تشرب سوى ذلك النكتار الفريد.. عصير يجمع في لونه وطعمه إشراق الشمس ووهج الحياة. لم أجد بُدًّا من إخبارها مجددًا.. بين كلماتي التي نطقتها في توتر حتى أن بعضها فُقد في النطق، والثأثأة، والبعض الآخر أظهرني كالأبله..كانت هي تُتابعني بينما تتلفّت

يمينًا ويسارًا باحثة عمن ينقذها من هذا المخبول. حتى ذكرت مركب الكوكتيل الذي يليق بها.

- أود تجربة مشروب كهذا.

مع ردها، وابتسامتها جلست دون أن تدعوني وطلبت النادل، وطلبت منه ذلك العصير الخاص وتحدثنا. بدوتُ أكثر ثقة من السابق وتحدثت معها عن قهوتها ومشروبها الجديد.. كيف أن للناس مذاقًا تمامًا كالأشياء، ويجب دائمًا أن يتناسب المذاق الخاص بالأشياء والأشخاص في الحياة حتى تكون أسهل في التذوق وأجمل للاستمتاع بها.. تحدثت عن حياتي وتحدثت هي عن حياتها، وفي النهاية أنهت كوب العصير..

همّت بالمغادرة فقمت معها على أمل أن تُعلّمني بوجهتها أو باسمها لكن بابتسامة رقيقة منعتني عن الاستمرار مشيرة إلى طاولتي الأولى:

- لا يُمكن أن يكون بيننا شيء مشترك..فكما لاحظت يبدو أنك تركت قهوتك هناك لتبرد.

- الحق قهوتك إنت قبل ما تبرد.

قالتها استريد مبتسمة، وما زال فنجان قهوتي بين يديها فابتسمت لها.

- التاندا الثانيه هتبدأ!!

اشرب قهوتك مع أول مقطوعة..كده كده إنت مش هترقص، والقهوة برضو ليها جلالها.

ابتسمت ناحيتها ومن ثم نظرت إلى فريدي مُقررًا:

- تانجو أرجنتينو.

التاندا الثانية

تانجو أرجنتينو

كمقدمي السيرك بدأ في التحرك ممسكا الميكروفون:

- التانجو الأرجنتيني هو دُرة تاج التانجو وواحد من أهم، وأقصى إبداعات البشر في الرقص.

كان يتحدث بعاطفة شديدة تصل إلى حد الشبق.

- نشأ التانجو كموسيقى ذات رقص مصاحب في نهايات القرن التاسع عشر في بوينيس أيرس، ومونتيفيدو الأرجنتين، ذو إيقاع ثنائي رباعي إلى رباعي رباعي أو كما يمكن اختصاره إلى حركات نقل (ABAB) او (ABCAC).

التانجو الأرجنتيني رقصة حسية غالبًا ما تهدف إلى شرح العلاقة بين الأخذ والعطاء في علاقات الحب بين طرفين يكون فيها الراقص قائدًا، والراقصة تابعة مع تعمد إبداء حركات المقاومة من حين لآخر من قبل

الراقصة والحركات التي تظهر التحكم والسلطة من الراقص يتخللهما إستدارات تعبر عن التناغم لشرح علاقة بين طرفين. نرقصها بتركيز شديد على أنغام "أميديا لوز" أو نصف الضوء كتبها أدجاردو دوناتو وألَّف كلمات أغنيتها كارلوس سيزار ليتزي في عام 1925 بمونتيفيدو للتعبير عن الحسية الجنسانية في مقابل الإثارة العابرة. نستمع إليها بتوزيع جديد من إصدار ديسمبر 2010.

تقدم الراقصان.. كانت عيونهما تحمل كثير من العناد، وحركتا رأسيهما تحملان كثيرًا من الانكسار.. أعظم ممثلي المسرح لم يكونا ليعبروا هذا التعبير المختلط أبدًا..إما إنهما أبرع من رأيتهما يؤديان..أم (وهو الاحتمال الأكبر) هم أصحاب القصة الحقيقيين؟

***

لم يكن الظلام دامسًا كما بدا.. كنت أرى ثمة ضوء.

ربما انبعث ذلك الضوء مني أنا شخصيًّا.. كانت مشاعري كلها تشعر ذلك الضوء، وتعيشه وأنا أستلقي بين ذراعاه أسند رأسي إلى صدره واستمع إلى كل دقة ينبضها قلبه.

أدفن وجهي بين حنايا جسده، وأحس كما لو أنني قد امتلكت العالم كله بين ذراعي اللتين احتضنتا خصره.. أشعر بالسكينة تملؤني، وتشع الضوء إلى الخارج. أتمنى لو يسكن كل الكون، وتتوقف دقات الساعة لنظل كذلك أبدًا على تلك الوضعية مطمئنين أن الآخرين لن يرونا، لن يشعروا بنا، ولن يلوموا علينا لأفعالنا أو يعدوا علينا أنفاسنا، ولكن لا أمل في أن يحدث ذلك..الوقت يمر والناس سيعرفون، وسيلومون علينا ويقولون أجرمتِ يوم أحببته، ولكن ضميري مستريح أنني لم أخطيء!

– ليلى..تمتي؟؟

سألني وعيناه تلتمعان بالضوء الذي انعكس عليها من زجاج النافذة.

- لا أبدًا..بس مُستمتعة بالهدوء.

- بحبك.

***

على عكس الطبيعي تبدأ الرقصة والجنشادا في وضعية بيبيرناس ابيرتاس أي أن تكون إحدى ساقيها على الأرض، والأخرى معلقة على خاصرة الجانشو .. يؤمن هذا الوضع تحكمّ كامل من الجانشو أينعم إلا أن الجنشادا تمثل مركز ثقل حركته.

***

وشعرت بذراعيه تحتضنني أكثر، وبجسده يقترب مني أكثر وأكثر، وغفوت وغفا هو الآخر!!!، وكأن كل ما كان في تلك الليلة هو حلم جميل.. استيقظت منه لأذهب إلى العمل الذي لم يمنعي من التفكير في حلم البارحة.. في حب البارحة.. في عمرو..

إن عملي هو أحب شيء لي في تلك الدنيا بعد عمرو.. فيه أجد نفسي، وأستطيع أن أحقق كثيرًا مما فقدته بالسابق..

أنا مهندسة ديكور!!! الجمال في مجالي هذا لا يتمثل فقط في الناحية الهندسية والتي تأثر جزء كبير من شخصيتي بها، ولكن جماله الفعلي يكمن في الطابع الفني الذي يغلب عليه في كثيرًا من الأحيان.. حينما أبني جدارًا هنا أو هناك.. حينما أهدم آخر.. أو أضيف لوحة أو أزيح ستار.. أشعر

بأهميتي، وكيف أن قرارًا صغيرًا بشأن مكان أنفذه أنا قد يؤثر سلبًا أو إيجابًا على حياة البعض!!!

وعمرو.. أنا أراه في كل ركن أعمل به وفي كل مشروع جديد أعمل عليه. هو الإلهام الذي دخل حياتي بعد أن فقدت تلك الأخيرة المعنى تمامًا.

كان ذلك منذ نحو سبع سنوات ونصف حينما كنت ما أزال متزوجة بحاتم.. حاتم كان النقيض لي في كل شيء وأدّعي القول أنه النقيض لعمرو أيضًا..أناني، متعجرف، ينظر لجميع الأشياء من زاوية واحدة.. زاويته هو. يفلسف كل شيء ويعطي الأمور أهمية لا تستحقها.. لم يكن يسحب تلك الأهمية سوى من الأشياء التي تخصني، فكل ما أحبه من طعام هو رديء، وكل ما ألبسه من ملابس يفتقر إلى الذوق كل ما أسمعه من أغانٍ هابطة، وكل ما أنفذه من عمل فاشل.. كان يعمد إلى جعلي أشعر بأهميته فقط من خلال جعلي أشعر بضآلتي، ويوم تركني لم يكلف نفسه عناء تفسير ذلك لي.. فقط تركني وحيدة لأتساءل: هل أنا السبب أم أنا الضحية؟ الوقت وحده هو الذي أجابني بعد أن قضيت شهورًا وشهورًا وحيدة لأعرف أنني يومًا لم أكن مخطئة، وأنه يومًا لم يكن على صواب.. فقط تركني وسافر إلى الخارج مع امرأة أخرى تزوج بها.

وظهر عمرو..

بكل بساطة ظهر عمرو، وكأن القدر الذي حرمني سعادتي قبلًا قد أتى الآن ليقدم لي هدية صغيرة، كبيرة هي الحب الذي وجدته في هذا الإنسان شاب صغير.. يصغرني بثماني سنوات، أتى من مدينته الصغيرة ليدرس

الحقوق، ويوم تقابلنا قرَّر ألا يعود، وأنهي دراسته وعمل هنا بإحدى الشركات.. أنا من أوجد له العمل وأنا من أوجد له السكن.. أنا من تذهب إلى منزله كل يوم لتطبخ له وترتب حاجاته.. هو فقط عليه أن يحبني لا أكثر، وأنا عليَّ الباقي، ببساطة لأنني أحب الباقي.

كنت أعلم أن الكثيرات يعجبن به، وأن تلك الفتاة تحبه بل تريده أيضًا، كل خلجة من خلجاها تقول هذا، وكل نظرة توجهها له، ولي معه تُنبيء أنها تُخطِّط لأخذه مني.. كنت أشعر بذلك وأنا أصطحبه من العمل يوميًا.. كانت دائمًا ما تنظر لنا معًا نظرة ذات مغزًى وكأنها تقول: (افرحيلك بيه يومين) كزميلة له في العمل، كانت تملك الكثير من الوقت المشترك معه.. وقت قد تحسن استثماره في الإيقاع بفتاي.

وحين أقللته ذلك اليوم كانت تنظر لي نظرتها المعهودة وهو يركب إلى جواري.

- شكلك متضايقة..اتأخّرت عليكي؟

لا أبدًا.. بس كنت بشوف.. زميلتك دي بتركز معايا قوي في كل مره بجيلك.

وذهبنا إلى بيته.. بيتنا، معًا كان على غير عادته وكنت أعلم ذلك!، وكنت أفكر.. ربما استثمرت تلك الفتاة الوقت بشكل جيد هذه المرة.

أنهينا طعامنا ووقفنا نغسل الأطباق معًا في المطبخ.. حاول أن يكون عفويًا فيما تحضّر لقوله منذ التقينا.

- ليلى.. إحنا مبنتجوزش ليه؟

- إشمعنى بتسأل السؤال ده دلوقتي؟

- بيسألوني عن المدام اللي بتيجي تاخدني من الشغل.. شكلي بقى وحش قوي، وشكلك كمان مبقاش ظريف، واللي بيتقال من ورا ضهري مش هيمر وقت كتير قبل ما يتقالي وش لوش.

- أنا ميهمنيش حد.

ترك الطبق الذي كان يجففه على الرخام، وأمسك كتفي بيده فتركت ما بيدي أنا الأخرى وصوت الماء المنهمر في الخلفية يعطيني انطباعًا قويًا أننا على وشك الشجار.

- أنا يهمني..يهمني منظري،ومستحملش أسمع عنك إنتِ كمان كلمه، ولا ان الناس تتعامل معاكي إنك صايده واحد أصغر منك، ومرفقاه.

- بس دي الحقيقة.

قلتها، وأنا أبتسم.. رافعة رأسي نحوه لتلتقي عيوننا في تحد حاولت مزجه بالسخرية كانت الكلمة تمزق أحشائي كما مزقت أحشاءه إجابتي، ولكن لا مفر فتلك هي الحقيقة التي يراها الناس حتى وإن لم نكترث لما يقولون.. هو ليس من سني ولا من مستواي المادي أو الاجتماعي، ولكني أُصر أن لديه مقومًا أهم..قد لا يفهمه الناس ولكن مقومه الوحيد والأكيد هو الحب الذي أكنه له.

استدرت من جديد إلى الأطباق، ومددت يدي أناوله الطبق الأخير ففوجئت أنه لم يعد معي بالمطبخ..تبعته تو أن انتهيت.. كان واقفًا بالصالة.

***

يتبادل الراقصان الخطوات السريعة 2 إلى 4 على رتم تانجو الدقيقة الواحدة قبل أن يُنهكان فتعود الجانشادا لوضعية كولوناسيون دي بيرناس أي أن تكون محمولة على الأرض من ذراعاها بينما ساقيها ممددان في انفساخ جراند كار كلي)

***

– إنتِ سألتيني النهارده على مايسة.. هي كمان سألتني عنك؟!

– بتسأل عليّا علشان عينها منك، و عايزاك.. إيه رأيك فيها؟

استدار غير مكترث للسؤال.

– أنا عايزِك إنتِ.

– وأنا هنا.

– رسمي.. عايز أتجوزك.

– مش هيحصل.. جوازنا هيدمّرك ويدمّرني ويدمّر الحاجة الحلوة اللي بينا..

حاولت أن أكون عفوية وغير مكترثة أنا الأخرى فأمسكت بريموت التلفاز، وبدأت في تغيير القنوات بشكل عشوائي:

– أنا مش هبات هنا الليلة.. قعادي هنا هيحسسني إني رخيص.. إنك شرياني.

– براحتك.. البيت بيتك تجيه، وتمشي منه، وترجعله في أي وقت.. بس أنا عارفة إنك هترجع.

قام متوجّهًا للخارج، وتبعته، وقبل أن يخرج من الباب شيء ما دفعني لأن أُمسك بكفه قبل أن يخرج.. نفس الشيء دفعني لأن أُقبّل يده، وحين اقترب ليُقبّلني، وقبل أن يفعل.. توقف كل شيء لم يستطع ولم أستطع أن أستمر أنا الأخرى، وخرجنا معًا من البناية، ولكن لأول مرة لم نكن معاً.. لمدة شهرين.

لن أصف كيف كانت حالتي في تلك المدة.. لن أقول إنها الفترة الأسوأ في حياتي كلها.. لم يسأل عني، لم أكف عن السؤال عنه، ولكني كنت أعلم أنه سيمل البُعد..حتمًا سيعود إلى الحب الذي أمنحه إياه،ولا يستطيع أحد أن يمنحه نصفه.. لكني أنا الأضعف.. المرأة دائمًا الأضعف في مشاعرها.. لذلك كنت أنا من أتصل لأول مرة به فقط لأقول أحبك.

– إنتَ مبتسألش عليًا ليه؟

– مش عارف..أنا وضّحت وجهة نظري، وأنتِ وضحتي وجهة نظرك، ومتفقناش.

- عايزه أشوفك النهارده.. نتقابل في شقتنا؟!

لم يكن سؤالي استفهاميًا أو حتى استنكاريًا.. كان استجداء واضح النبرة تمنيت لو يستجيب له.

- مبقتش شقتنا.. أنا مش فاضي النهارده.. خارج مع خطيبتي.

كنت أعلم أنه سينهي جملته بكلمة زوجتي أو خطيبتي.. شيء ما أخبرني بأنه ابتعد عني لأخرى.. واحدة أخرى لا ولن تحبه مثلي.

- مايسة؟

- أيوه.

- ألف مبروك.

وأغلقت السماعة في عصبية، الآن تتكرّر حكايتي من جديد وها هو إنسان آخر يتركني دون أن يخبرني ولكن هذه المرة الأمر أصعب بكثير.. أنا أحب الرجل وأعلم أنه يحبني هو الآخر، والحياة لن تعود أبدًا كالسابق بعد تركه إياي كما لم تعد قط كالسابق بعد معرفتي إياه.. لما يحدث لي هذا، ولماذا أنا بالتحديد؟؟!!

***

من تلك الوضعية يصعب على الجنشادا الوقوف مجددًا ما لم يدعمها الجانشو. بقوة يديرها على محور الساق الممتدة أمامها فتستدير دورة كاملة لتقف على محورها خلفه. تحتضنه بقوة فيلتف نحوها.

مر الوقت.. تركت بيتي وعشت في تلك الشقة التي شهدت أيامي معه.. صديقاتي أخبرنني أنني أنا المخطئة، فالزواج به لم يكن خطأ فادحًا ما دمنا نحب آحدنا الآخر، وأخريات أخبرنني أن معرفتي بالفتى كانت هي الخطأ ذاته..

لقد عرفن كلهن حكايتي معه من البداية.. لم تكلف إحداهن نفسها عناء النصيحة بل اكتفين بأن يتكلمن عن حكايتي أنا وفتاي خلف ظهري، ويثرن الشائعات، والآن يرتدين أثواب الوعظ !!!

ولذا لم أكترث لآرائهن.. هن لم يفهمني قط، ولن يفهمني أحد، لا أحد يعرف.. فالاختيار ليس لي، وأنا لن أدع عمر يتزوج بي ليعيش حياته كلها يعرف أنه تزوج بالمرأة التي كثرت الشائعات عنه معها ولن أتزوج الفتى الذي يصغرني سنًا لأكون المرأة التي اشترت فتاها بالمال..

إن علاقتنا كانت خاطئة، أنا أعلم ذلك، ولكنها أيضًا كانت عذبة، وكانت تحوي من الحب ما هو أكثر من أي علاقة أخرى، وعلى العموم كان الوقت قد فات على التفكير في ذلك بعد أن تركني بالفعل، ولكني كنت أعلم أنني لن أستطيع الكف عن التفكير به ما حييت

ومرت أشهر أخرى قبل أن يتصل هو بي..

***

من الدفع 2–4–2 اماما تعود الجنشادا ست خطوات إلى الخلف وتهرب مع بداية الدورة إلى اليمين متوجهة بنصفها العلوي إلى الأسفل فيُعيد الجانشو توجيهها إلى الأعلى، ومن ثم يلتفّان يتبادلا المركزين، وتقوده هي يسارا.

***

– عايز أشوفك النهارده.

– وأنا عايزاك تشوفني.

– في بيتنا؟

– ومراتك؟ خلينا نتقابل في مكان عام أحسن.

وتقابلنا..هل هي شهور التي تفصل بيننا.. لا إنها سنون من الألم عشتها أنا، وبعد أن رأيت وجهه وهو ينتظرني في الكافيتريا أجزمت أنه عاش نفس الألم مثلي.

جلست في هدوء دون سلام،حاول هو القيام لاستقبالي، لكنني جلست دون تحية.. خلعت نظارتي الشمسية، ولم أستغرق الكثير من الوقت في تفحص وجهه الذي بدا عليه ما يود قوله.

– مالك يا عمرو؟ شكلك أكبر بعشر سنين.

– طب كويس.. يمكن وأنا شكلي أكبر ترضي تتجوزيني.. أنا سبت مايسة.

- صوتك وشكلك باين.

- هي بتحبني.. أنا عارف.. لكن، أنا خدعتها يا ليلى.. عشت شهور بتعذب وبعذبها معايا.. من غير ما اقصد كنت دايما بقارن بينك وبينها.. لقيت نفسي بعقد حياتي.. عايزها هي اللي تكرهني وتسيبني.. بقيت بحقر من تفكيرها..زوقها.. أي حاجة بتعملها.. حسيت إنها تافهة جدًّا قدامك.. وكنت دايمًا عايزها تحس إنها تافهة قدامك.

- الكلام ده مش غريب عليَّ.

جاوبته وصور شجاراتي المتكررة مع حاتم تتراءى أمامي نفس الأسلوب.. نفس الكلمات.. نفس السلوكيات.

- سيبتها وعايزك إنتِ.. أنا مش قادر أكون على طبيعتي أو راحتي أو هدوئي إلا معاكي.. مش مهم نتجوز ولا لأ.. المهم نرجع لبعض.

صمت للحظات محاولة قياس الوزن النسبي لاحتمالات رجوعنا ونجاح علاقتنا من جديد..كل الاحتمالات التي دارت بعقلي في ثوان أكدت لي أن لا.. لكن هذا عمرو.. أنا لا أستطيع أن أقاوم.

- وأنا موافقة.. عارف ليه.. علشان إنت اللي اخترت المرة دي إننا نتجوز.. مش عايز تتجوز لمجرد اننا المفروض نتجوز.

***

ست إلتفافات أخرى على تانجو الدقيقة الواحدة ينهك البايلارين بعدها فينهيان الرقصة بلا تموضع ختامي يتوقّفان مواجهان أحدهما الآخر في صمت.

***

شيء ما ذكرني بحاتم.. قد صار عمرو حاتم وصرت أنا المرأة التي تركني إليها حاتم.. ياللخسارة التي نلناها.

وتزوجنا ورجعنا إلى شقتنا معًا.. بدت الليلة عذبة ومألوفة لكلينا ذات الوضعية بين ذراعيه وذات كلمات الحب تتوجه من قلبه لقلبي ومن شفتيه لشفتي.. شيء واحد كان مختلفًا تفصيلة صغيرة كانت تنقصني.. ضميري لم يعد مستريحًا!!

***

لا أنكر أنني بكيت. حسنًا لم أنحب (إذا كنتم لا تدركون الفارق) لكن دموع ما تسلّلت إلى وجنتي. ليست لي قصة حب كتلك. لم تمر تجاربي العاطفية بهذا الجانب الحسي الذي بالتأكيد ليرفع العاطفة إلى مستوى آخر. فدخول الجسد إلى المشاعر ليصعد بها إلى عنان السماء أو ليهبط بها إلى أسفل سافلين ولغرابة الأمر فقد واجهت ليلى وعمرو كليهما بشكل متضارب جدًّا.. لا أعلم إن كنت أبكيهما أم أبكي حالي حيث وصلت لتلك السن ولم أمر بتجربة بعمق تلك قبل.

كانت ابتسامة فريدي تتحول شيئًا فشيئًا إلى ابتسامة قاتل سيكوباتي يتلذذ بتعذيب ضحيته.. هو يدرك أنني صرت جزءًا لا يتجزأ من ميلونجاته رغم عدم مشاركتي بالرقص إلا أن مشاعر الميلونجا بدأت تستحوذ عليَّ شيئًا فشيئًا.. مد أذنه بحركة كوميدية نحوي واضعًا يمناه حول صوان أذنه فقلت باحثًا عن رقصة تُهدّيء من أعصابي بعد تلك التي مرت "تانجو كانيانيجو".

***

تانجو كانيانيجو

ستايل كانيانيجو الراقص من التانجو تم تطويره في بداية القرن العشرين، ويعتمد على كل اساسيات التانجو إلا أنه يرقص فقط في الوضع المغلق لمغلق ويتشارك الراقصان في محور حركي واحد يعتمد على مقاومة الراقصة للراقص في الحركة وعدم الامتثال السلس معه مع إرخاء الساق لسهولة الحركة، وقد أصبح الشكل التركيبي المعقد للكانيانيجو هو وضعية رقص التانجو الأساسية المشهورة للعامة في الصور الراقصة للعروض نرقصها على أنغام "أديوس موتشاتشوس" التي ألّفها عازف البيانو الأرجنتيني الأيقوني خوليو سيزار ساندرز مع الشاعر الأرجنتيني سيزار فيداني عام 1927. حينما كانا في سهرة مع أصدقائهم في حانة ودعهم صديق راحلًا بعبارة "أديوس موتشاتشوس" أي وداعًا يا أصدقائي. فجلس ساندرز إلى البيانو ومعه فيداني ليكتبا تلك الرائعة مستعينًا نقراتها الرئيسة من اللحن الفلكلوري "آ فورتونادا موزيكا".

بمجرد ذكر كلمة كانيانيجو قام رجل وفتى صغير لم ألحظ سِنّه إلا حين قام وتوجها إلى الحلبة.. هي ثاني هوموزيناتي لتلك الليلة.

كانت رائحة الطعام الشهي أمامي على موقد الغاز تخدر عقلي المنهك.. لكنه الجوع القاتل والأفواه التي عليّ إطعامها هو ما يدفعني إلى الوقوف أمام الموقد للطهو بعد يوم عمل كهذا. إنه ذلك الطعام الشرقي المميز لنا نحن العرب.. يستطيع أي أنف تمييزه وأي لسان أن يستمتع به على عكس أكلات معظم الأمم الأخرى! أو تلك هي الحقيقة التي تربّينا عليها ونرفض أن نقتنع بعكسها.

دلف جيمي من الباب الأمامي للمنزل.. كنت أراقبه وابتسامة تداعب شفتي بينما يلقي حقيبته على الأريكة ويرفع شعره الأشقر عن جبينه.. ابتسم لي محييًا:

- هاي أبي كيف حالك اليوم؟

بخير.. لم يكن يومًا رائعًا في العمل ولكن!!! أنا في المنزل الآن رغم كل شيء، وأنت؟!

- حدثت مشاجرة ضخمة في كافيتريا المدرسة.. ذلك الشاب أوجلفي كان يتشاجر وأحدهم على فتاة ما.

- أوجلفي.. مايكل أوجلفي.. أليس ذلك؟!

- نعم إنه ابن الخالة ويلما!

- حسنًا فلندعنا من شؤونهم.. اذهب وابحث عن ليزي وأخبرها أن الغداء جاهز.

كان ذلك هو اليوم الرابع على التوالي الذي أعود فيه للبيت مصطحبًا إليزابيث من العمل.. لم أكن أستطيع أن أدفع لها دوام كامل في المكتبة التي أملكها ولذلك لم يكن هناك حل سوى أن أستدعيها بشكل ودي لتتناول الغداء معنا ونقوم أنا وهي معًا بتحميل الملفات على الكمبيوتر الخاص بالعمل.. لطالما كرهت التعامل مع البيانات في حياتي العامة، والمهنية أيضًا!

وبينما جلس ثلاثتنا على المائدة كان جيمي يتابع ليزي وعيناه تدمعان من الضحك بعد كل رشفة ترشفها من طبق (الملوخية) أمامها.

- أنتِ لم تعتادِ ذلك الطعام عزيزتي.

- إنه لذيذ ولكن لا أنكر أن معدتي لم تتعوده.. اعتقد أنني اكتفيت.

كان الإدعاء واضحًا على تعبيراتها لكنني تماديت.

- ولكن أنت لم تتناولي ربع طبقـــ......

كانت قد قامت عن المائدة قبل أن أكمل كلامي..ذهبت وطبقها بيدها كي تغسله.. أو قل تفرغ ما به قبلا!

مرت لحظات من الصمت قبل أن يقرر جيمي الحديث معي.

***

على أسلوب تانجو هوموزيناتي يبدأ الراقصان في استعارض القوى كلاهما يرقصان بشكل شبه منفرد و لكنهما يتحدان فقط عند الالتفاف.

***

- أبي.

- نعم.

- لقد ذهبت إلى الكنيسة اليوم بصحبة هارفي.

انتظرت قليلًا محاولًا أن أعرف بما عساي أن أجيبه.

- رائع جيمي إذا فقد بدأت تفكر جليًا فيما عساك تفعله بهذا الشأن؟!

- ليس تمامًا.. كان حفل تعميد ميل أخي هارفي الأصغر.. كما حضرت حفل المتسفا (البلوغ الديني اليهودي) الخاص ب الإيجا منذ شهرين.

- حسنًا.

- أبي.. هل قمت بتعميدي؟

ألقى جيمي السؤال نحوي في تحدٍّ واضح.. تحدّي المراهقين.. أجبت في تردد.. ليس لأني لا أعلم الإجابة ولكن لأني أجد صعوبة بالغة في التحدث عن الماضي خصوصًا فيما يتعلق بـــ جيمي وتاريخنا المشترك.

- لا..

- لِمَ؟

- عندها ستكون.. أكمل طعامك يا جيمي. ودعني أكمل أنا الآخر.

- أنت ترفض الحديث معي.

- لا، أنا أؤجله حتى المساء ..انتهِ من فروضك ونتحدث بعد العشاء..

قاطعتنا إليزابيث وهي تتحرك في سرعة كي تأخذ معطفها وتهم بالخروج.

- سيد راجي.. عليّ الانطلاق الآن.

- راجح.. عزيزتي كم مرة سنتعلمها.

- سيد راجي تناقشنا في ذلك مرارًا.. أنا لا أستطيع نطق حروفكم العربية، ولن أستطيع كالآخرين، وداعًا.

- كانت تفتعل الابتسام أمامي، بينما كنت أعلم أنها حانقة عليّ كل الحنق، فأنا أجعلها تقوم بالعمل دون أجر كما أنها من النوع الذي لا يفضل التعامل مع من هم من جنس مختلف.. لكن لم تواتِها الشجاعة لمواجهتي قبلًا، وأنا غير مهتم بهذا الشأن كي يؤرقني ويدعوني للتأمل به.

وبينما كان يقوم عن المائدة هو الآخر شعرت به يتمم:

- الموضوع بقى مستفز.. أنا اتخنقت.

كان يتعمد أن يلفت انتباهي لما يقوله.. كان يتمتم بالعربية كي يلفت انتباهي بشكل غير مباشر، وهو غير معتاد استخدام العربية إلا في أضيق الحدود.

- جيمي.. إنت فعلًا عايزنا نتكلم في الموضوع ده؟

قلتها بالعربية أنا الآخر.

- يا ليت.

- حسنًا، اذهب لتغيير ملابسك ووافِني في حجرة الجلوس.. سأعد أنا القهوة.

في سرعة صنعت أسرع فنجاني قهوة عرفهما التاريخ، والأسوأ طعمًا على حد سواء وتوجهت نحو حجرة الجلوس وجلست بانتظار جيمي.

***

ييأس الجانشو في دفع الجانشو دوس في قيادة الحركة ، فيضطر إلى متابعته، ومحاولة استعادة مركزه في الرقص من خلال دفع الذراعان، والنصف الأعلى من الجسد بينما يتحكَم الجانشو دوي من قيادة سرعة السيقان، واتجاه الحركة.

***

وحين أتى كان يبتسم تجاهي في تردد وجلس مواجهًا إياي بادئًا الحديث:.

– هل تذكر آخر مرة جلسنا فيها مثل الآن لنتحدث في أمر.. الدين.

– نعم..لقد كنت في العاشرة.. كنت ولدًا ذكيًا.

– يومها قلت لي إن لي ظروفًا خاصة وإنك لن تفرض عليَّ دينًا محددًا، وأنك ستترك لي الخيار دون أن تحدد لي إطارًا.

– نعم.

لقد قلت لي حرفيًا أنك تعلم أنني فتى ذكي،وأنني سأعرف كيف أختار طريقي.

– بالفعل.

– حسنًا أنا في السابعة عشر، ولم أعرف بعد كيف عساي أن أختار الطريق.

– أجد صعوبة في تصديق أن فتى في مثل عمرك وظروف مجتمعك مهتم بالدين كل ذلك الاهتمام..لا أعتقد أن أحدًا في أورانج كاونتي كلها يهتم كمثلك

كانت العصبية قد أخذت طريقها إلى نبرات كلماته.

– هل تلوم عليَّ ذلك؟ أنا لست كالآخرين وأنت طالما أدركت هذا، وربما كنت أنت من فعل بي ذلك.. حسنًا، هل يسيئك أن أكون مهتمًا بأمور الدين؟

– أبدًا أنا يسعدني أن تكون مهتمًا.. ماذا تريد أن تعلم؟

– لما لم تعمّدني؟

– تعميدك كان يتطلب أن أرضى لك أن تكون كاثوليكيًا ..إتخاذ ذلك القرار ليس بيدي، خلفيتي الإسلامية..أقول إنه.. إنه قرار يتخذه أبوك حين تولد أو تقرره أنت حين تكبر.

– حسنا لِمَ لَمْ تعلمني قواعد دينك إذًا؟

– لم أستطع.. شعرت أنني بهذا الشكل أجبر مخلوقًا لا حول له ولا قوة على شيء لا يعلم أن كان سيحبه مستقبلًا.. لا تنكر أنك لو كنت مسلمًا، فذلك كان ليوجب عليك نوعًا من العزلة عن الناس هنا، وبعض عاداتهم المحرمة على المسلمين. أن تكون مختلفًا عن باقي عائلتك البايلوجية.

– أنت لم تهتم بتعليمي قواعد أي الدينين!

حاولت أن أرتب كلماتي. صحيح أنني حاولت الاستعداد لمثل تلك المناقشة في يوم ما.. لكن الموقف في حقيقته صعب مهما حاولت الإعداد له.

– جيمس آرثر باور.. رأيتني أعبد الله بطريقتي، ورأيت كل الناس يعبدون الله من حولك بطريقة.. هل وجدت اختلافًا بيني، وبينهم في شعوري نحو الله.

– ليس بالكثير

– ليس بالجوهري تقصد!!

– لكنك بنيت بداخلي متاهة من اللامعرفة..بالطبع أنت تعرف لوريتا كنت ساهرًا في حفلتها السابقة وحين أختلي كل الفتية والفتيات وجدتني معها وحدنا في الحديقة، واقتربت مني.. كدنا أن نفعلها.. لكني تذكّرت ما تقوله عن ذلك، وإنه حرام قال لي الجميع إنني ما دمت أحبها وتحبني.. ما دام كلانا يعرف ما يفعل وإن كان حقًّا يريد القيام به.. فهو ليس خطأ.

– الأمر هنا ليس خاصًا بالممنوع والمسموح دينيًا.. الحرام حرام في كل الأديان يا جيمس.. الفرق هنا اجتماعي وليس دينيًّا.

– وكيف لي أن أعرف الفرق وأنا لم أتعلم أي شيء عن أي دين؟!

– أنا لم أُجبرك على اتّباع معتقداتي الدينية.. هل كنت لتكون سعيدًا إذا ربيتك على الإسلام؟!

– ربما لو أجبرتني لكنت تحديت ذلك، ولكنك لا تجبرني، وذلك يُعمّق إحساسي بأنك على صواب.

***

يستعيد الجنشو الحركة بعد أن يطلق الجانشو دوس يداه فيسحبه الأول مجددًا، ويباغته بالقياده في المارش الخلفي.

***

حاولت تهدئته.. كنت أودُّ أن أكون أكثرًا انفتاحًا معه لتبرير المنهج الذي اتخذته في تربيتي له. بدأ في ارتشاف أول رشفة من كوب القهوة، وكادت تسقط كلها من شفتيه جراء شعوره بالتقزز.

ضحكت وتبادل هو الضحك معي ووضعنا الكوبين على الطاولة.

– حسنًا.. كنت متوترًا.. أنت تمارس عليَّ ضغطًا كأني على كرسي الاعتراف..

– الأمر ليس كذلك أبي.. أنا فقط.

وجدت أن عليَّ مقاطعته ليظهر الأمر جليًّا.

– حسنًا لقد قصصت أنت حكاية.. دعني أقص لك أخرى.. حين كنت أنت في الخامسة فكّرت بفكرة مجنونة.. أن أقوم أنا بإحدى عادات ديني.. كان عيد الأضحى لدى المسلمين.. فكّرت في ابتياع خروف.. بالفعل ابتعته وذبحته فجر العيد في الباحة الخلفية لمنزلنا، كنت من الغباء أنني لم أفكر في الحصول على إذن من البلدية أو المجزر العام أو جمعية الملاك بالحي.. المجزر العمومي أقام الدنيا ولم يقعدها.. جمعية الرفق الحيوان ثارت ثار الجيران، ووصفوني بأنني جزار وحشي حتى أن خالتك ويلما أقامت دعوى لحضانتك كي لا تتأثر بعاداتي البربرية كما أسمتها.. ساعتها اختلط لديَّ ما هو مجتمعي بما هو ديني.. علمت أن ممارسة بعض أمور الدين موقوفة بطبيعة المجتمع الذي قد يسمح أو لا يسمح بها.

أذكر تلك القصة بل إن خالتي ويلما أخذت تحذرني منك وتحثني ألا استمع إليك فيما يخص أمر العقيدة خصوصًا بعد أن انتهى موضوع الحضانة لصالحك..

- إذًا أنت ترى الأمر جليًا.

- لا أستطيع أن أقرر..أنا أمريكي الهوية..عربي العادات مسلم المعايشة.. مسيحي الهوى.

- هل تعتقد أن الأفضل لو كنت فرضت عليك ديانة بعينها؟

- لا أعلم يا أبي

- تعالَ إلى هنا.

قام عن كرسيه المواجه لي جلس إلى جواري قبل أن احتضنه إلى جانب قلبي.

أعلم أن ما فعلته ليس صوابًا تمامًا.. لكني أدرك أنه ليس خطأ فادحًا.. أنت الآن شاب ناضج، وتستطيع أن تقرر أي الديانات يناسبك كإنسان.. أنا فقط ردت لك الأفضل دون أن أفرض عليك طريقًا ما ربما ليس الطريق الصائب..حين وطأت قدماي هذه الأرض للمرة الأولى لم يكن لي صديقًا واحدًا بها سوى والداك بالميلاد، وقبل وفاة والدك حين طلب مني رعايتك وأوصى بحضانتك لي قبل أن يقوم حتى بتعميدك.. من يومها لم يعد لي أسرة سواك.. أنت أسرتي، جيمي.. أنا أخاف عليك من نفسي.

انتهت محادثتنا الصغيرة، لم يكن جيمي راضيًا لأنه لم يتوصل لنتيجة كان يريد مني أن أختار له عقيدة، ولكني لم أستطع.. كنت أود أن أتركه يقرر ما يناسبه حتى وإن لم يناسبني أنا شخصيًّا! أعلم أنه على وشك ترك المنزل للجامعة.. ربما يريد أن يحدد هويته قبلًا، وربما سينسى كل شيء عن هذا الأمر ما إن تطأ قدماه أرض الحرم الجامعي.

في اليوم التالي دلفت إلى حجرته على غفلة منه كان واقفًا في مواجهة النافذة بعينين شاخصتين نحو الشمس الغاربة من نافذته،سألته في فضول:

- ماذا عساك أن تفعل؟

- أصلي.. صلاتي الخاصة.

- أي صلاة؟

- تلك التي أصليها منذ كنت صبيًّا صغيرًا..

***

في النهاية يقرّر كل من الجانشو، والجانشو دوي أن يتمّا الرقصة بخطوات هادئة،ومُحايدة،وبابتسامة تُنافي مشاعر التانجو تمامًا.

***

التهبت أيدي الجمع بالتصفيق للراقصين، و لم أجد في نفسي بُدًّا في التصفيق أنا الآخر، حسنًا حينما يتمحور الأمر حول الدين.. فالأمر جد صعب، وأنا غير معجب لا بقرار راجح، ولا بقرار جيمس، ربما أصابني قليلًا من الفتور. لكن المنحنيات الصاعدة والهابطة قد تكون ما يعطي لليلة نكهة حقيقية..

اقترب مني فريدي وهو يدرك عدم إعجابي التام بالرقصة، ولا القصة خلفها وسألني:

- ها؟

- أوريليرو.

***

تانجو أوريليرو

- الأوريليرو هو نسخة التانجو التي نشأت بعيدًا عن أصولها الجغرافية في بوينس أيريس في المدن الصغيرة والتجمعات العمرانية البعيدة حيث كانت المساحات المتاحة للرقص أوسع مما سمح بتطوير هذه النسخة لتعتمد على حركات في الوضع القائم أكثر من الحركات اللينة.

يتسم الأوريليرو بالخطوات السريعة والتي تكسر الإيقاع الراقص (2-4،4-4) في خطوات أشبه بالفوكس تروت أحيانًا كما يتسم بالحركات الهوائية العالية التي تعطيه حركات بهلوانية أكثر منها حركات راقصة. هيم معها على أنغام "ال تشوكولو" التي تعني بالإسبانية (كوز الذرة) وهي موسيقى لأغنية شعبية ألفها أنجيل فيلولدو ويعتقد أنه كتبها تكريمًا لمالك أحد الأندية الليلية الذي كان يلقب بـــ(تشوكولو). عزفت المقطوعة لأول مرة في الأرجنتين عام 1903،وأعيد تسجيل نسخ عديدة منها في الولايات المتحدة بأصوات جورجيا جيبس، توني مارتن، وتوني آردن، وبيلي اكستين ونايت كينج كول في خمسينيات القرن الماضي، ونستمع إليها من عزف

رباعي (كوارتانجو) في عرض حي على مسرح كوروونا، مونتريال، كندا، أكتوبر 2009.

قامت زهرة السمراء أخيرًا.. ممسكة بيد الجانشو الرفيع ليبدءا الرقص مع الموسيقى.

***

لابد أنها مصيبة ما تلك التي تجعل الحاج شاكرًا يبعث في طلبي.. كنت متأكدًا أن مشكلة ما حدثت أو توترًا ما بالجو في سبيله للحدوث..إن الحاج شاكر لا يترك عمله أبدًا أو ليجعلني أترك عملي إلا لو كان أكيدًا من أهمية ما يبعث في طلبي لأجله، طوال خمس سنوات هي مدة عملي معه في حانوته الكبير للعطارة لم يبعث في طلبي ليحادثني سوى مرة أو مرتين.. ولم تكن تلك ذكريات أسعد لتذكرها!

هبطت درجات السلم الضيق التي تفصل مكتبي بأعلى عن الحانوت ذاته – حيث يفضل عمي الجلوس بين عماله وزبائنه– في تؤدة أقدم ساقًا على الأخرى وحين صرت في مواجهته نظر لي نظرة عميقة لا تعابير فيها، وبصوت حانٍ على عكس وجهه وقال:

– اقعد يا محمود.

جلست في صمت قبل أن يسألني بنبرة تفتقر إلى الحنان تلك المرة بل كانت أقرب إلى الاستجوابات:

– إنت شوفت عمك مصلي امبارح؟

- لا، ولا أول إمبارح.

- يعني الراجل غايب من يومين؟

- معرفش.

- إنت ضايقته في حاجه؟

- أنا.. أقسم بالله ما حصل.. إنت عارف إنه مبيطلعليش فوق.

- بيطلع لما يعوز فلوس..

- أيوه بس مطلعش من مده..حضرتك فاكر إني السبب في عدم مجييه؟ إشمعنى أنا؟

- إنت الوحيد اللي مش بتحبه، وعمره ما صلى في مكتبك.

- أنا مبكرهش عم مصلي، وحلفتلك.. ماليش دعوه بغيبته.

-طب ارجع شغلك، ولو عرفت أو افتكرت حاجه عنه.. تبلّغني على طول.

***

تبدأ الرقصة و كل من الجانشو، والجانشادا منفصلين.. تتحرك هي وحيده بينما يُدير الجانشو يديه في الهواء كالفلامنكو1 داعيًا إيّاها للاقتراب.

***

ذهبت في وجهتي دون أن أفهم لما يسأل الحاج عن العم مصلي.. لطالما تعجبت من أهمية عم مصلي عند عمي، والتي هي بالتأكيد أكثر من مجرد التبرك بذلك الشيخ (المجذوب) أو كما يطلقون عليه (البركة) الذي يحل على الحانوت يوميًا في أوقات مختلفة يقوم بالدعاء للحاج وللمكان ويصلي.. يقرر في كل مرة الصلاة في مكان كأنه يريد أن يُبارك ركنًا معينًا، ومن ثم يختلي بالحاج في الغرفة الصغيرة خلف الحانوت لدقائق ليخبره ببشائر لا يحدث أغلبها ويطمئن عمي المسكين على ولده المتوفى ومكانته في الجنة والرسائل الروحية التي يبعثها لأهله مع عم مصلي..

كما يفعل عندنا يفعل في كثير من الحوانيت.. يدعو ويصلي حتى أسموه عم مصلي بعد أن عجزوا عن معرفة اسمه، الآن أنا أتعجب من غضبته لاختفاء الرجل التي لم تتعد الثماني والأربعين ساعة بعد، ماذا يمثل ذلك الرجل بحياة عمي من أهمية؟

بصراحة أكملت عملي دون اكتراث للأمر أكثر من ذلك، بل قل إنني نسيته تمامًا حتى حل المساء وحان ميعاد رجوعي للبيت..كنت أرجع للبيت

غالبًا بصحبة عمي ولكن اليوم حين نزلت لم أجده على كرسيه أمام (البنك) بل كان واقفًا على باب الحانوت شاخصًا ببصره للمجهول.. حين اقتربت منه وربت على ظهره نظر إليّ في يأس واضح:

– غريبة كان عندي إحساس انه هييجي.. أستناه نص ساعه كمان؟

محمود ارجع إنت البيت،ولو مرات عمك سألتك قولها هتأخّر في شغل مهم.

***

تقترب الجانشادا، ولكنها تحافظ على خطوة فارقة بينها وبين الجانشو. يؤدّيان الحركات دون أن يتلامسا، وكأن أحدهما مرآة الآخر.

***

تركته وذهبت.. لم أكن متعجبًا لموقف عمي فقط بل بصراحة لموقف باقي الحوانيت من حولنا.

رأيت أكثر من حاج، وأكثر من شيخ يقفون على أبواب حوانيتهم شاخصين في الفراغ تمامًا مثل الحاج شاكر عمي ينتظرون ذلك الرجل.. الذي صار يمثل الآن سرًّا غامضًا لي!

فكّرت أين عساه أن يكون.. لا يعقل أن يكون تبخر في الهواء هو هنا أكيد لم يخرج من الحي.. لأنه ببساطة لن يعرف أين يذهب إذا وطئت قدماه خارج حدود الحي.. إنه عجوز مسكين بالرغم من كل شيء.

حين وصلت للبيت، وقبل أن أصعد درجات السلم سمعت ما اعتقدته في البداية صوت حركة الفئران داخل جحورها التي حفرتها في الجدار العميق، ولكن مع قليل من التركيز استطعت تمييزها.. إنها أصوات بكاء خافت..بكاء خافت لرجل عجوز.

بعد أن تأكّدت من الصوت.. بدأت في تتبعه إلى أن وجدت الرجل جالسًا تحت درجات السلم المتهالك.. متكوّرًا على نفسه كقط وليد في ليالي الشتاء القارسة البرد، ولم أكن في حاجة إلى المزيد لأدرك أنه هو ذاته الرجل المختفي..عم مصلي.

اقتربت منه، ولا أنكر أنني لم أكن أرغب ولكن الفضول لمعرفة ماهية الأمر هو ما دفعني.

جلست إلى قربه بينما لم تتلاقَ عيوننا بعد.

– عم مصلي..يخرب عقلك..إنت بتعمل إيه هنا.. الدنيا مقلوبة عليك بره.

أجفل، وأبعد جسده عني سنتيمترات قليلة قبل أن يقول:

– معلهش يا أستاذ محمود.. أصلي مريوح[6] حبتين.. أنا.. أنا خايف.

---

[6] – لفظ شعبي (متعب)

- إيه اللي بيك يا عم مصلي؟

***

مع أول امتداد حقيقي ليد الجانشو نحو الجانشادا تتعلّق هي بذراعه، وتأخذ وضعية مفتوح لمغلق حيث تتحاور السيقان، الذراعان مترابطان بينما النصف الأعلى من الجسد مائل للخلف.

***

- من ليلتين وأنا نايم...

تردد قليلًا والتفت بناظريه بعيدًا عني ومن ثم سألني متوترًا:

- هتقول لحد؟

- هو في سر؟

استجمع قواه في النهاية بالرغم من أنه بدا يائسًا.. فقط يخبرني لأنه لا يعلم لمن يتحدث.

- في حاجة غريبة حصلتلي يا أستاذ محمود.. بس.. بس..أقولك.. ولاّ مقولكش؟

- عم مصلي أنا مش فاضي..يا حاجة.

ناديت زوجة عمي،ولكن بصوت منخفض..كنت فقط أستفذه مشجعًا إياه على الاسترسال من خلال التهديد. فأوقفني هو مردفًا:

- خلاص خلاص هقول..شفت رؤيا.. خير اللهم اجعله خير.. بس احلف منتا قايل لحد!

عدت إلى وضعي السابق موجهًا تركيزي بكامله نحوه.

- وهيادي أول مره تشوف رؤيا.. منتا رؤياتك مرطرطه ع المنطقه بطولها وعمال تتحاكي بيها ليل ونهار!

- بس دي.. أول مره أشوف رؤيا.. مش أحكي أني شوفت رؤيا.

أحسست انني المحقق كولومبو في تلك اللحظة.. تملكني اكتشافي الذي لم أسعَ إليه.. وددت أن أصرخ وجدتها باللاتينية (Eurika) لكني فقط لم أكن متأكدًا من نطقها السليم

- تقصد إنك آآآآ؟

- ابن عمك زارني في المنام وقاللي متفتريش يا عبمنعم.. الناس اللي ربنا محنن قلبهم عليك متنصبش عليهم.

- اسمك عبد المنعم؟

***

في أول التفافة قوية يسحب الجانشو الجنشادا نحو صدره دافعًا ساقيه في وضع البرجل 70 درجة فلا تجد هي بُد من ضم ساقيها والانزلاق بين ساقيه المنفرجتين. الآن هي في وضع أفقي بزاوية 45 محوّلة فقط بذراعية، وقدماها بالكاد تلمس الارض.

***

- وهي دي القصة دلوقتي يا افندي.. الميتين غضبوا عليا.. زهقوا من افترايا عليهم.

وأخذ في البكاء من جديد، وبصوت مسموع هذه المرة بينما يولول

- هيلعنوني في السما والأرض.. مش هبقى مبروك.. طب هاكل منين بعد كده؟!

- يعني إنت مبروك ولا لأ؟

قلتها نافد الصبر.. لم أكن أبحث عن الإجابة في الحقيقة، ولكني كنت أرغب فعليًا في أن أقتنص منه اعترافًا صريحًا أضعه في وجه الجميع.

- هم.. بيقولوا إني.. من وأنا عيل من ساعة ما كنت بنام جنب المقام وهم..

واستأنف بكاءه بصوت أعلى، تلك المرة كان بكاؤه خليطًا غير متجانس من الخوف والغضب واليأس.. كنت بداخلي أشعر بالسعادة لانهياره، وأمامي أنا تحديدًا..

لكن في خضم مشاعره المختلطة وجدته يصرخ بشكل تغلب عليه نبرة التوبة والخوف..(انت القوي يا رب) (سامحني يا قوي) (أنا متعلق في حبالك انت يا رب.. متردنيش يا رب) كلماته أشعرتني بالحرج حقيقة، الرجل كان كشجرة أقلعت الرياح جذورها وترك أمرها لي كي أوقع جزعها بضربة واحدة..فهل أفعل؟! وجدتني أقرر القيام والصياح أنا الآخر على زوجة عمي.

- يا حاجة.. كوباية مايه يا جماعة.. لقيت الشيخ مصلي.. لقيت الشيخ مصلي.

نظر نحوي مستجديًا ممسكًا بكم قميصي:

- بتعمل إيه يا أستاذ محمود.. ليه كده يا افندي.

- مفيش يا عم مصلي.

- هقولهّم إيه... ههبّب إيه في عيشتي الفقر بعدين؟!

- مفيش يا عم مصلي، ولا حاجة.

- هعيش ازاي وأنا مش مبروك؟!

قرّرت أن أرحمه، ولا أعلم إن كنت بذلك قد أصبحت شريكه في النصب أم لا لكن تعاطفي مع بكائه هو ما أوجد ردي الفوري لا عقلي جلست رابتًا على كتفه.

- ومين قال إنك مش مبروك..إنت بتقول إن الميتين بيزوروك.. وآدي ابن عمي زارك..بيبعتولك رسايل، واديه قالك رساله.. بيخافوا على حبايبهم اللي عايشين واديه وصّاك على عمي وباقي الحجاج انك متفتريش باسم الميتين عليهم.. إنت مبروك بس مش واخد بالك.. لو خايف يعني.. بلاش تزوّدها في الرغي والحكايات.

ابتسم ابتسامة رضا باهتة.

- وهم مش هيزعلوا؟!

- لو زعلوا مش هيزوروك تاني، وزيارة ابن عمي ليك.. تحذير لأن مدام زارك..ميبقاش زعلان.. ولا إيه؟!

تملّلت أساريره، وغمره شعور بالرضى المفجايء كأنه فقط كان ينتظر تلك الجملة ليتعلق فيها.. ليبني عليها إيمانه الذي كاد يهدم في ذاته..لقد أعدت جذور الشجرة..

- عندك حق.. لا عندك ألف حق.. إنت مبروك يا سي محمود انت بتعرف تفسر الرؤيا.. طب إنت عارف.. هو مكنش غضبان قوي في الحلم.. أقصد في الرؤيا.. كان بيضحك.. بيضحك معايا زي ما انت بتضحك معايا كده.. عارف إيه كمان.. كان المقام وراه.. أي والنبي كان المقام وراه منور..

لم تمر ثوانٍ قبل أن أجد الشارع كله قد أتى بعد سماع صوتي ليرى الشيخ مصلي..

بدا كأنه نسى حديثي تمامًا لحظة أن رآهم، وبينما كنت أصعد السلم نحو الشقة بأعلى كان مصلي ينادي:

- نادولي ابني شاكر.. يا شاكر.. ابنك جالي في المنام.. باعتلك رساله معايا، وشكله كان زي البدر ولابس كاكولة[7] الأزهر وبيقولك....

***

[7] - جب و قفطان الازهريين يلقب في الحديث الشعبي كاكولة

يسحبها من يمناها، ومن ثم بيمناه يرفعها من خصرها حول رقبته فتلتف حولها ف دورتين كاملتين قبل أن تهبط من ناحية كتفه الأيسر على قدميها في ثبات،وظهرها موجّه نحوه ، يتركها تمامًا فتلتفت هي تجاهه، ويتموضعا لإتمام الرقصة.

***

وبينما كان يخبر بحكايته الأقرب للتلفيق كان وجه عمي متهللًا وأصوات زغاريد النساء تصم الآذان.. عندها قال مصلي بصوت عالٍ:

- الصمت.. يا ابني يا محمود.

من أعلى السلم جاوبته:

- نعم يا عم مصلي.

تطلع مكتبك حفن بخور من الصبح يولع وتشغل الراديو صوت الشيخ محمد رفعت لصلاة الضهر.. بُكرا أنا جاي أصلي في مكتبك..

ضحكت، وأكملت طريقي لأعلى بينما يترامى لمسامعي استئناف أصوات الزغاريد، وعمي يبارك لي بعلو عقيرته على بركة الشيخ مصلي التي ستحل علي في الغد.

***

يفلت منها ذراعه الأيسر فتلتف على محورها لتظر على ذات الاستلقاء، ووجهها للأسفل فيمد يسراه مع يمناه تحت إبطها، يوقفها أمامه بحركة واحدة فيصير ظهرها مواجهًا لصدره. يدفعها بيمناه فتبتعد بينما يسراه لاتزال ممسكة بيمناها.

***

التهبت يداي من التصفيق.. حسنًا، أنا غير مهتم بفلسفة القصة وبمدى حقيقتها وبعلاقة زهرة بمصلي، ولكن تلك السيدة زهرة أو الآنسة زهرة اثبتت رغم وزنها الزائد خفة ومهارة فائقة بل إن الراقص ههنا كان قويًا بما يكفي رغم حجمه الضعيف في القيام بكل حركات (الجنش) من الحمل والالتفاف والتحريك..

لكن بالرغم من كل شيء، فإن التاندا الثانية لم تكن بالنسبة لي في قوة التاندا الأولى.. ربما لأن الانبهار قد زال، وربما لأن منحنى الفلسفة (التانجاوية) قد على عن الجانب الحسي.. بدأت أخيرًا في فهم التانجو.

تقدّمت من الميكروفون وصرخت في الجمع مبتهجًا:

– كورتينا.. فريز أوو شوكولا، وأمسكت الورق بينما أشار لي فريدي بعدم اكتراث ذاهبًا مع الجمع نحو طاولة الطعام.

***

فريز أو شوكولا Fraise au Chocolat

- وجد الفريز غايته في الشوكولا

هكذا قال البروفيسور روجيه لطلبته المتراصين في مدرجات الجامعة.. قط لم تكن جامعة من جامعات الطبخ ولا كان هو أستاذ تغذية.

لطالما تعجب الناس من ربط روجيه بين تدريس المنهج الفلسفي وأمثلة المذاق التي يستخدمها في الرابط بين مذاق مخلوط اللبن والفانيليا بالمدينة الفاضلة، ما وجه التشابه بين الحق والخير والجمال من جهة والتفاح الممزوج بالزنجبيل والقرفة من ناحية أخرى. كانت أمثلة روجيه مرتبة بين الطعوم حتى ظن بعض الطلبة النجباء أنها ستؤدي في النهاية إلى معن أعمق من مجرد التشبيهات المضحكة التي يستخدمها دومًا،واعتاد الطلبة العاديون السخرية المستمرة منه ومن أمثلته. إلا أن جملة محاضرة اليوم عن الفريز الذي هو الفراولة والشيكولاتة كان أعمق من أن يفهمه الكثيرون، وخصوصًا أن محاضرة اليوم كانت بالإجمال مبهمة ولم يتحدث هو بها عن

شيء بالتحديد. بدأها بالحديث عن أهمية البحث عن أوجه الاختلاف بين أنواع التوت المختلفة ألوانها ومذاقها وأنهاها بجملة:

وجد الفريز غايته في الشوكولا.

لذا لم يكن غريبًا أن تجه العديد من الطلاب بعد انتهاء المحاضرة إلى الكافيتريا،وأن يطلب النجباء منهم مجددًا..كلهم تذوق الفريز بالشوكولا.

في تتابع مسرحي نزل الطلب على الطاولات.. انتظر معظمهم حتى تم إنزال الطلبات في اتفاق غير مسبوق أو معلن كأنه العقل الجمعي يدفعهم إلى اكتشاف ذلك المذاق معًا. بعد أول التقام للكريمة البنية ذات القطع الحمراء، وبمجرد أن ازدردوها جميعًا نظرت كل العيون إلى بعضها البعض باحثة عن الاكتشاف.. ظلت العيون معلقة لبعض الوقت دون أن يدرك أحدهم معنى ما.. مذاق لذيذ.. متناسق.. مختلف، حميم.. طفولي، ناضج.. بسيط

في النهاية أنهى الجميع أكواب الفريز بالشوكولا وقاموا عازمين على سؤال روجيه عن معنى المثال.

كانت المحاضرة التالية أكثر مدعاة للحيرة من الأولى والكل متحفز لسؤال روجيه عن مذال المحاضرة السابقة تو أن ينتهي لكنه سبقهم بإلقاء جملة مختلفة هذه المرة.

حين طلب النعناع الانضمام إلى الفريز والشوكولا رحب الشوكولا بمزيد من الغنى لزمرته بينما رفض الفريز قائلًا.. اثنان يمثلان صحبه وثلاثة هي عين الصخب.

بهت الجميع وقرروا تأجيل السؤال إلى أن يتذوقوا النعناع مع الفريز والشوكولا.

كما حدث في أول مرة حدث في الثانية وتحفز الجميع في المحاضرة الثالثة قبل أن يلقى مثاله الجديد.

غضب الشوكولا من أنانية الفريز فقرر ضم النعناع بينما تركهم الفريز ليظل وحيدًا..حلو المذاق.. حاد لاذع بينما تماهي دفء حلاوة الشوكولا مع حدة وحمو النعنع ليظل شيء ما ناقصًا.

وسط دهشة الجميع قالت فتاة ذات خصر ناحل وشعر قصير.

- سيدي تذوق المزيد من تلك الطعوم سينسف نظامي الغذائي.

ضحك من ضحك وصمت من صمت في انتظار إيضاح روجيه الذي قرر أخيرًا أن يفصح عما بداخله:

- الفريز والشوكولا مجرد تجربه أثبتت نجاحها لكن النجاح ليس وحده النهاية وزمرة الناجحين كما تشجع الباقين على الانضمام إليها، فإنها تزيد مخاطر خروج الجميع من الزمرة وتشتيتها، النعنع ليس مسؤولًا عن ضياع حلاوة الفريز والشوكولا.. المسؤول هنا هو التدقيق والتطوير المنهجي.. بعض أجمل الأشياء لا تحدث إلا مصادفة، ولا يحافظ عليها سوى انعدام المنهج النظامي الثابت.

ظل طبق الفراولة المغطاة بالشيكولاته وبعض زخات السكر يتطلع إليّ من فوق الكرسي الخاص بي.. وددت حقًا أن أتذوقه. لكني كنت تواقًا لبداية الكورتينا الثالثة والتي قررت أنها ستبدأ ولا بد بـ التانجو نويفو ما دمت قد بدأت التفكير في فلسفة التانجو.

التاندا الثالثة

تانجو نويفو

راقص وحيد تقدّم إلى الحلبة واقتربت منه استريد غير عالم إن كانت هي من سيراقصه، وأمسك فريدي بالميكروفون وبدأ يتكلم في تأثر تمثيلي:

- في بدايات القرن العشرين نشأت منظمة صغيرة أسسها جوستافو نوفيرا وفابيان سالاس سميت بـ جماعة بحث التانجو ومن ثم مع استمرارها تحول اسمها إلى مؤسسة الكوزموتانجو. عنيت هذه المؤسسة بدراسة فيزياء الحركة الراقصة في التانجو المعتمدة على الحمل والالتزان والالتفاف على المحور تحت مظلة ما سمي بـ(kinesiology) أو علم الحركة،ومن ثم تطور الأمر لابتكار حركات رقصية تعتمد على الديناميكية تتوافق مع الإيقاع الخاص بالتانجو وقد أدى ذلك إلى ابتكار نسخة خاصة بالتانجو الحداثي (نويفو) لكن الأكيد أن التانجو نويفو يعني بابتكار الحركات وتعليمها وأكثر من أدائها. نرقصها معا على نغمات "تو سوروبو بفتي" هبوط الغسق، نادرة من نوادر التانجو اليوناني من أداء الزوج الرائع بانوس

فيسفاراديس الملقب بصوت اليونان الحريري والراقصة والموسيقية والمطربة الشهيرة دانيا فاموس، سجلها سويا و رقصا ايضا عليها في عام 1937.

***

نبدأ من الوضع لوتس.. ساق الجانشو اليمنى أمام ساق الجنشادا اليسرى.. الساقان الأخريان منفرجتان للخارج ويميل كلا البايلارين بجذعه واتجاه ناظريه في اتجاهان متنافران، من الوضع لوتس يتحرّكان ل كومبليتو كونتاكتو أي الاتصال الكامل، ومنه يعودان إلى لوتس، وتظل تلك الوتيرة مُكرّرة مع ثلاثة أوضاع أخرى من اوفرا.. فينترا.. بورتا.. من وإلى الكومبليتو كونتاكتو.

***

ضوء خفيض بصعوبة يستطيع أن يتسلل إلى من خصاص النافذة المغلقة من خلفي.. إنه شعاع الشمس الدافيء الذي لا أراه، ولكني بالقطع أشعر به على جسدي المُسجى على السرير، رافضًا أن يتحرك أو رافضًا أنا أن أحركه.. كنت أستلقي لست لكوني تعبًا فأنا لطالما استطعت أن أتغلب على هذا الشعور، وبالتأكيد لم أكن أستلقي من الملل فهنالك آلاف من الأعمال بانتظاري كي أنجزها فقط إن استطعت القيام عن الفراش، إنه الرفض أنا أرفض أن أقوم، أن أعمل، أن أرى نفسي في المرآة، أن أحيا .. على الأقل كما تعودت أن أحيا في السابق!

نصف ساعة تمر، ونصف ساعة أخرى.. ثم نصف ساعة جديدة.

يا ترى ما الذي حدث في تلك الساعة والنصف التي خلت.. ربما مات أحدهم أو ولد أحدهم، بدأت مشكلة ما أو انتهت مشكلة أخرى.

ولكن أنا ما زلت أنا من ساعة ومن يوم، من عام ومن قرون حتى وسأظل هكذا حتى أبد الأبدين.

شارد في سقف حجرتي. لا أفكر ولا أرى ما أنا شاخص بعيني نحوه. غير مدرك لغير تلك الطرقات.. من أين عساها أن تأتي.. أحدهم يطرق باب ما.. إنه بابي..هل أفتح الباب أم أتركه.. أقوم من سباتي العميق أم أظل غارق فيه حتى النهاية.. نهايتي.

توقف الطرق أخيرًا كأنه النبض الذي توقف في عروقي منذ قليل.. ماذا؟! أتوقف..نبضي.. دعني أركز كي أسمعه.. صمت رهيب.. دعني أحاول أن ألمس مرفقي وأرى إن كنت سأشعر به، وأكسر سباتي بتلك الحركة؟ الآن أنا أشك إن كنت أرفض الحركة أم أعجز عنها.. أنا في حيرة هل أتحرك بالرغم عني أم لا أتحرك وأموت للأبد.. إن تحركت أكون حيًّا وإن كنت قد مت فلا مجال لحركتي. ومحاولتي لن تكون ذات مغزى لأن الوقت قد مر ومت بالفعل– حسب الافتراض – سأترك عقلي يصمت من جديد.. مهلًا إن كان عقلي ما زال يفكر إذًا أنا حي!!! لا ذلك مبدأ فلسفي بحت (أنا افكر إذًا أنا موجود) لم يجزم أحدهم قط أن الميت يتوقف عن التفكير بل من الأجدى أن يتوقف الميت عن الحياة ويتنازل عن كيانه المادي ولا يظل منه سوى المعنى..الفكر.

إذًا يا أناي العزيز دعني أضع احتمالاتي.. في أسوأ الاحتمالات أنا ميت يقاوم شعوره بالموت، وفي أفضلها أنا أحلم لا لا فكرة الحلم مستبعدة، فالحالم لا يستطيع إدراك أن له القدرة أصلًا على الحلم..إذ ربما قد أصبت بشلل كلي ولم يتبقَّ مني سوى أذنين – مهلًا يقولون إن آخر حاسة تتوقف عن العمل في الجسم هي حاسة السمع – على أي حال فالموت أفضل من الشلل فإن المرض عجز..أنا أرفض أن أكون عاجزًا.. بينما الموت انتقال من حال إلى حال.. تطور طبيعي للإنسان يتحول فيه الي غذاء للكائنات الدقيقة وسماد للأرض..

مهلًا أنا لست ميتًا فأنا أرى أيضًا.. من قال لك إنك ترى؟!

لو كانت حاسة النظر عندي توقفت هي الأخرى فكيف تسنى لي رؤية هذا الضوء الآتي من الرواق.. أنا لم أضئ أي نور في الرواق.. من أين يأتي؟!

إنه يقترب ماذا عساه أن يكون.. رهبة ما تعتريني، وجسدي يرتعش رعشة وهمية، لا تكاد تكون أكثر من مجرد رغبة في الارتجاف.. من عساه أن يكون؟! ملك الموت.. لا فقد أتاني هذا قبلًا حين مت بادئ الأمر.. ثم هو لن يكون جميلًا مضيئًا فإن أحدًا لم يتخيله قبلًا سوى رجل يتشح بالسواد حاملًا منجلًا بين يديه يحصد به الرؤوس..الآن أره جليًّا الآن أراها جلية أنها أنثى امرأة جميلة تشع نورًا من حولها لتوها قد دخلت حجرتي .. كانت تدرك انني لن أدير راسي لأواجهها وكانت تعرف أن رؤيتها بزاوية عيني ليست مريحة ادعى أيضًا أنها ارادت أن أتطلع في وجهها براحة.

تسلقت فراشي ووجدتها تجلس أمامي تستند بثقلها على ركبتي.. لكم هي خفيفة.. أيها الغبي إنه أنت من فقد الشعور، ولكن الملائكة لا وزن لها.. هكذا أعتقد.. بالتأكيد هي ملاك جاء ليقودني للعالم الآخر.

- خطأ!

قالت مباغتة إياي حاولت أن أسألها ماذا تعني، ولكن شفتي تذكرت أنهما ترفضان الحراك:

- لا تجهد نفسك بمحاولة الكلام أنا أعي ما تفكر به.

- لكن يا سيدتي أنا ميت.

- هذا لا يمنع عقلك من التفكير.. لقد أصبحت فكرًا خالصًا بلا مادة تخاف عليها من الضرر أو التأثر.

- كلماتك مخيفة... إذًا أنا ميت بالفعل.. كيف توفيت؟!

- لقد مُت اليوم صباحًا.. فقط انتهى عمرك الافتراضي كإنسان، وحان الوقت كي تكمل دورك في الكون على هيئة أخرى.

- آه مثل تناسخ الأرواح.. أنا روح إذًا الآن؟

- لا أنت مجرد فكر ذلك الجسد المسجى لم تتحرر بعد منه وبمجرد أن يزول الجسد ستكون فكرًا حرًا غير معتنق من أحدهم..

- إذًا أنا ما زلت حبيس ذلك الجسد الميت.

- أي نعم.

- جسد وفكر.. أنا حي إذًا.

- أتتذكر يا عزيزي؟!

- لا عليك، والآن ماذا تريدين مني؟ تقودينني للعالم الآخر؟

- أنتَ في العالم الآخر.

- إذًا؟!

- لا يوجد شيء في هذه الدنيا يحدث بلا ترتيب أو نظام ثابت.. أنت - كفكر - مفرد لست ملكًا لإنسان مُحدّد أو لجسد محدد، أنت تنتقل من رأس لرأس ومن جسد لجسد.

- مهلًا.. لِمَ أتحدث بالفصحى؟

- ومَن قال إنك تتحدّث الفصحى؟ أو تنطق العربية من الأساس؟

- تلك الكلمات المنمقة.

- إنها فقط أفكار منمقة بلا أثمال اللغة.

- والآن.

- حان الوقت لتنتقل لأنا جديد.

- هه ماذا؟

- العقل الجديد الذي سيمتلكك، وستساعده في مواجهة الحياة.

- لا تخبريني أنه طفل صغير.

- الطفل الصغير أفكاره تتشكل معه حسب بيئته وتكوينه.

- إذًا فأنا...

- منحنى.. أنت الفكر الذي يعتنقه الإنسان بعد منحنى خطرًا في حياته..مفترق طرق أو حين يعيد اكتشاف العالم من نظرة جديدة.

- هي أنا تلك النظرة.

- نعم، ألا تذكر كيف اعتنقك ذلك الجسد الذي أنت لا تزال كامنًا به.. أنت من تسبّبت في نجاحه وشهرته.

- وهل سيستغرق الأمر زمنًا كبيرًا.

- لا، فالإنسان المطلوب في انتظارك حالًا هيا.

شعور غريب هو أن تقوم للمرة الأولى لتجد جسدك- أقصد ما كان جسدك- ما زال مُسجّي أمامك على الفراش، ولكن على ما يبدو أن قيامي عن ذلك الجسد، لم يكن اختياري أنا كنت كالمدفوع للقيام.

- سأفتقده.

- لست وحدك.. العالم كله سيفتقد ذلك الفيلسوف.. أنت هو ذلك الفيلسوف لست هو.. أنت هو من سيفتقده الجميع.

- لكني لا أستطيع افتقاد كياني هل لي على الأقل أن أغلق عينيه المفتوحتين.. أشعر بالشفقة عليه ولا أريد أن أتركه هكذا.

- من سيكتشفون الجثة هم من سيغلقون له عينيه.

- هل لي أن أبكي عليه؟

- لا، فليست لك عينان أو دموع.

- هيا!!!!!!!!!!!

من الواضح أن وحدتي الزمان والمكان معدومتان بالنسبة لي الآن كفكرة، وبالنسبة لها كملاك أو كـــ.. لا أعلم كيانها؛ ولذا سألتها بينما نحن نهيم فيما يبدو أنه الفراغ.

- ما أنت بالتحديد؟ ملاك؟!

- لا اعتبرني فقط مجرد ساعي بريد أنقل الأشياء من أشخاص لآخرين من كيانات لأخرى ومن عوالم لأخرى.

- حسنًا، إخبريني عن جسدي الجديد.

- شكلًا أم موضوعًا.

- هه.

- شكلًا أنا لست مهيًأ لأحكم على الآخرين وموضوعًا فأنت شخصيًا هو هذا الإنسان.

وصلنا.. من أين أو لأين..كيف أو متى لا أعلم المهم أنني استفقت للحظة ووجدت نفسي في حجرة ما مغلقة مبعثرة، أشياؤها وشاب ما في ركن الحجرة مستلقٍ على فراش غير حليق الذقن شبه نائم أو ناعس.

- هذا هو أناي الجديد.

- نعم.

- لا.

- هو محتاج إليك.

- ولكن أنا لست...

- وأنت محتاج إليه.. ما فائدة الفكر بلا من يستخدم هذا الفكر أو يعتنقه؟!

- حسنًا .. كيف سأدخل فيه أقصد كيف سيعتنقني؟

- فقط حين تريد.

- ماذا؟!

- تستطيع أن تظل حوله قدر ما تشاء..تحوم حوله حتى تقرر أن تعيش بداخله، ساعتها سيحدث دون أن تشعر بحدوثه.

***

من الكومبليتو كونتاكتو النهائي يبدأ الراقصان في الالتفاف المحوري، أربع إستدارات كاملة تنتهي بالراقص واقفًا في وضع خطوة ونصف الراقصة مُعلّقة بكتفه.

***

- وهل سأتذكر كل ما مر بي في حياتي مع الإنسان السابق.. هل سأتذكر ما حدث لي وكيف انتقلت؟

- هو شيء نادر الحدوث يسمونه في عالم البشر تناسخ أرواح، وأنا شخصيًا أسميه ذاكرة الفكر.

واختفت من أمامي، والآن أيها الوحيد المهزوم كما أرى المجروح كما أشعر.. لماذا أنا؟ ولماذا أنت ترى سأنسجم معك؟ ترى هل انسجمت مع جسدي السابق؟ لا أذكر ولكن أنا طموح.. سأجعل منك ناجحًا لذلك أنا هنا ولذلك بعث بي إليّ هنا .. حسنًا سأدخل.

..

....

......

....

....

- هه خير اللهم اجعله خير.. إيه ده.. حلم؟ رؤية..؟ إيه اللي حصلي حالًا ده؟! أنا نايم بقالي قد إيه..

في تثاقل نظرت إلى ساعتي كانت الساعة الثالثة عصرًا.. أنا لست معتادًا نوم الظهيرة ولذا أجدني متثاقلًا كأن جسدي جديد عليّ ..كأنني لم أستخدمه قط توجهت في تؤدة نحو مرآتي.. لِمَ أبدو هكذا شارب وذقن غير حليقين.. شعر أشعث.. هل أنا أول من فشل في حيات.. بالقطع أنني

لن أكون الأخير.. أريد أن أنجح، هه من أين أتيت بهذه الحيوية والرغبة يا ترى؟! لا أعلم ولكنها مشاعر طيبة..أريد استغلالها. سأقوم وأحلق ذقني وأخرج.. أريد أن أرى الحياة بنظرة جديدة.. بفكر جديد.. فأنا أستطيع!

بينما كنت أمر بين أمي وإخوتي الجالسين في الردهة، كنت أشعر بهم يتعجبون لخروجي من حجرتي، وكوني تخطيت أزمتي.

– حمد الله ع السلامة يا ابني.. أيوه كده.. اخرج من أوضتك كده وبلاش زعل.. هيفيد بايه؟

– الحمد لله يا أمي.. أنا كويس.. هبقى كويس إن شاء الله.

– اغسل وشك وفوق كده وهحضّر لك الفطار.

خرجت من الحمام لأجد الإفطار الملوكي (فولًا وطعمية وبيضًا وجبنًا قديمًا)، إفطار مصري كامل بانتظاري ازدان بالخبز البلدي الصابح وطبق الجرجير (الوورور).

وبينما أزدرد طعامي من الجريدة التي فرشتها أمي تحت الأطباق في سرعة وقعت عيناي على خبر وفاة أحدهم..كاتب ما من الإسكندرية.. أنا لم أسمع به قبلًا ولكن وجهه مألوف لديَّ وكأني أعرفه جيدًا.. أو قضيت معه دهرًا ..

دمعة لم تخرج من عيني وجدتها تسيل على وجنتي.. أعتقد أن قليلًا من التشويش قد انتابني..اليوم أنا كنت أحلم ب.. أن هذا الرجل هو..ولكني لا أومن ب.. لا.. إنه الوحي.. سأكتب قصة جديدة.. أخيرًا.

ينهي الجانشو آخر خطوة من 2–4–2 ومن ثم يمسك كلتا يدا الجانشادا و يركع على ساق واحدة كأنه يُمجّدها.

***

تمنيت من قلبي أن تكون تلك هي آخر الرقصات الفلسفية.. علني أكون قد جمعتهم كلهم على التوالي كي أحظى في النهاية بشيء قوي.

قررت في النهاية قبل أن يسألني أن أباغته أنا " تانجو الصالونات".

***

تانجو الصالونات

للمرة الثانية تقوم الآنسة زهرة وذات مراقصها الرفيع، حسنًا على ما يبدو أن للنويفا ميراندا تجارب مهمة.. لا أستبعد أن تكون هي ذاتها من الحاصلات على جائزة ما للمدرسة.. فلنتابع إذًا.

– تانجو الصالونات لا يعبر عن نوع محدد من نسخ التانجو العديدة ولكنه يشير إلى حالة التانجو الرقصية. فبعد أن انتشر التانجو، وبعيدًا عن ميلونجا بدأت ممارسة التانجو تأخذ شكلًا اجتماعيًّا أكثر وبدأ الناس في ممارسته في الأحداث والحفلات العامة بين 1935 و1952، ويتميز تانجو الصالونات بالبطء الحركي والتحرك القياسي السلس، عدم الخروج عن الحركة أو عن الحدود المكانية لها واحترام خصوصية كل زوج من الراقصين في عدم التداخل الحركي أو التشارك الدائري فيما يسمى بال (كوديجوس) أو إتيكيت التانجو. يعتمد تانجو الصالونات على الاحتضان القريب في وضع مغلق لمغلق والحركات الأكثر نعومة في الانتقال للوضع

مغلق لمفتوح ويعتمد على السير في اتجاه محدد للراقصين في 60 إلى 70% من الرقصة نكتشف ذواتنا فيها على نغمات "كامينيتو" تانجو كتبه خوان دي ديوس فيليبرتو وكلمات جابينو كوريا بينالوزا، ويمكن التعرف على موسيقىها بسهولة خصوصًا أن لها شعبية عالمية توازي شعبيتها في الأرجنتين والأوروجواي.من عزف الأسطوري جينو كاربونارو، صدرت في مارس 2012.

***

ورده.. ليس فقط هو اسمها، ولكن الورد هو الصفة المميزة لها تراه في ملابسها وتشمه في عطرها وتشعر بنعومته حين تحدثها.. نعم لم يعطها الله جمالًا فاتنًا، ولكن حباها بأشياء أخرى أهم من الجمال!

عرفتها أول الأمر كعاملة في مصنع للحلوى وحين عرفتها أكثر عن قرب علمت أنها أكثر من مجرد فتاة فاتها قطار الزواج.. أدركت للمرة الأولى إنها إحدى تلك الزهرات التي لا الزمن ولا الطقس ولا سوء التربة حولها يؤثرون فيها ولو قليلًا..

وحين قررت أن أدخل إلى عالمها الخاص.. ذلك العالم الذي أغلقت بابه على نفسها.. ربما فقط لأنها لم تجد من تشاركه فيه.. جالستها وهي قرب إحدى الماكينات كانت تجلس أمامها.. لا توجه عينيها نحوي.. فقط إلى ما تفعله كانت تنظر وتجاوب وتناقش

***

على نغمة النقر الاعتيادية يبدأ الراقصان في الحركة المُملة الاعتيادية 2–4 و 4–4 بشكل مكرّر خطوات يمينًا خطوة لليسار.

– إيه..متعبتيش؟

بشتغل نفس الشغلانة من خمستاشر سنة.. عُمر تاني زي ما بيقولوا.. جاي دلوقتي تسألني تعبانة و لا لأ؟

– فعلًا عُمر تاني.

سرحت بعينها بعيدًا لوهلة كأنها ترى الدنيا من حولها وتحسب لكم تغيرت، ودارت بعينها في أرجاء العنبر الواسع، وحين توقف نظرها عندي ابتسمت قبل أن ترجع بعينها إلى الماكينة وتستطرد.

مكنتش أيامها كمّلت 18 سنة لما عرفت إن أبوك هيفتح مصنع هنا.. إنت عارف البيت عندي حالتنا يعني مكانتش أيامها قد كده، وأنا لا اتعلمت ولا رحت مدارس.. كأن المصنع ده وقعلنا من السما.. إنت بقى أيامها.. مكنتش كمّلت 5 سنين.. كنت واد عسل.

– إنتِ بتحبي المصنع.. مش كده؟

– بحبه؟! دنا بعشقه..هو دنيتي ومكفيني عن الدنيا براه.. بيقولوا المصنع سرق عمري.. متجوزتش، ولا خلفتش زي باقي البنات، وبعد ما أهلي سافروا على دمياط.. لا بقيت بكلم حد ولا شوف حد غير فيه.

كانت معلومة سفر أهلها لدمياط جديدة عليّ.. استغربت أنني أراها كل يوم ولم أنتبه قط لكونها، وحيدة ولم أسألها يومًا عن قريب لها.

– طب، ومسافرتيش معاهم ليه؟

– يوووووه.. دي حكايه تانيه.. اسمع يا سيدي.. من ييجي خمس سنين أبويا ورث عمه، ومن ضمن الورث بيت في دمياط.. قال يشد الرحال على هناك..البيت المِلك يوفّر علينا كتير، ولو ع الرزق رب هنا رب هناك والكام ألف اللي ورثهم مش هيخلونا نحتاج.. شدوني من المصنع شد علشان أروح معاهم.. جابوني بالكلام إياه.. يا بت تعالي وسيبي الشغل.. إخواتك الصغار اتجوزوا وانتي حابسة نفسك بين العنابر والنار.. يا بت هنعيش في المِلك.. يا بت شوفي نفسك..إنتِ شقيتي كام سنه، ولو عايزه تشتغلي ألف مصنع يشغلك هناك دا إنتِ خبرة وهلوبة.

***

فجأة يقرر الجانشو رفع الجنشادا فتستند بمرفقها على خاصره ليحملها، وتكون ساقها اليسرى مفرودة أمامها، واليمنى منغلقة بحذى ساقيه، يسير بها خطوة فتبدّل من وضعية ساقيها كأنها تخطو في الهواء قبل أن تهبط قدمها على الأرض في الحركة الرابعة.

***

لّميت حاجتي في شنطتين.. شنطة فيها هدوم، وشنطه مرضيتش أوريها لحد من كتر ما كان عينهم فيها.. كانوا فاكرين محوّشه فيها فلوس، ولا حتتين تلاته دهب.. فات أسبوع ولا أسبوعين كان سواد عليا من غير شغل.. سواد السواد.. صحيان متأخر وكنس وطبيخ وعلف في أبويا وإخواتي، وأنا مش واخده على كده. كانت مكنتي وحشاني، وخناق البنات، وريحة السكر المحروق لـ اللديده.. يوووه المهم.. كنت شايله شنطتي في أوضة الخزين.. هو لا في خزين ولا زفت هي زلعة جبنه وزلعة عسل اسود..يخرب بيت العسل الأسود وسنينه وشوية بصل..بس أمي سمتها أوضة الخزين يعني منظره وسط النساوين اللي جاورناهم جديد.

عنها يا سيدي وكام يوم عدوا زي ما قولتلك وفي يوم سمعنا هبده في أوضة الخزين دي.. عنها وقمت مسروعة، ومعايا أمي وإخواتي نشوف إيه اللي حصل.. لقيت زلعة الزفت العسل واقعه مدشوشه على شنطتي إياها والعسل محميها، وحياتك حسيت الكل حتى أمي فرحانين إن الشنطة اتغرّقت عسل.. منا كده هفتحها ويعرفوا فيها إيه.

***

بعد وصول قدما الجانشادا إلى الأرض، والعودة إلى الحركة الاعتيادية2-4-2يفاجيء الجانشو الجنشادا بدفعها أرضًا لتجلس على أطراف قدمها اليسرى رافعةً قدمها اليمنى فوقها، ويبدأ هو في إدارتها على محورها بيمناه بينما يسراها ملتفة حول خاصرتها المنثنية.

- وكان فيها إيه؟

احمرّ وجهها الأسمر قليلًا، وجاوبت في خجل جعل يديها ترتعشان لثانية فيتعطل سير الورق في تلقيم الماكينة. أوقفتها ومن ثم قامت في همة وقوة جسدية لتجذب التروس وتعدل من تلقيم الورق وعادت لتردف وخجلها لا يزال يغلب صوتها.

- حاجات كنت بحوّش واشتريها لجهازي.. يعني لما اتجوز.

قاومت رغبتي في الضحك أنا الآخر ولكني اعتقدت أنها انتبهت وخفت أن تغضب فرسمت الجدية على وجهي وسألتها:

- وبعدين؟

- أبدًا يا سيدي.. كلهم لقيتهم بيضحكوا..حتى أمي.. بيضحكوا، وكأنهم اكتشفوا إني غبية.. لقيت جوز أختي اللي أصغر مني بيجي 5 سنين بيضحك بسنانه الصفرا دي، وبيقول..انتِ كنتي لسه مأمله في جواز يا وردة..أمي ساعتها اتعدلت..كأني صعبت عليها، ولمته بكلمتين هو مراته.. بس رئيفة أختي مهانش عليها جوزها يتهزأ، وقعدت تبرطم أنه كان قال إيه يعني وكده.. ملقتش رد، والنعمة ما لقيت رد عليهم من كسفتي غير إني كنت شايلة الحاجات دي لجهاز أختي الصغيرة خالص..

- وبعدين؟

- نزلوا ع الشنطة زي المساريع يفلوا كل حته فيها.. اللي هيتنضف واللي هيتغسل واللي هيترمي..شفتهم على كده انفجعت..عنها وسكت..

سكت خالص.. ييجي شهر مبحطش منطق والله لدلوقتي ما اعرف ليه..في الأول كنت حاسه إني مش عايزه أتكلم ..عنها وعاديك.. بقيت مش عارفه.. مش قادره.. الدكتور قالهم بعدين إنه.. مرض نفسي.

قالت كلمة مرض نفسي بصوت خفيض متلفتة حولها لتتأكّد أن باقي الفتيات لا يسمعنها:

– أصلًا مراحولوش غير بعد ميت رقوه وميت حجاب.. المهم قالهم فرفشوها، وسيبوها تعمل اللي هي عايزاه.. أول كلمة نطقتها ساعتها كأن لساني المربوط حل..كانت المصنع.. أرجع المصنع.. قاموا رجعوني تاني هنا، وخدولي أوضه ساكنة فيها لدلوقتي، ورجعت أتكلم زي البرابنط.

– والشنطه إياها؟

– لا..أنا عندي بدل الشنطه تلاته كل ما أقفّل واحده أبعتها على دمياط.. لبنات إخواتي أساعدهم بيهم في جوازهم، وشنطة رابعه مخبياها تحت السرير.. هنا.. في أوضتي.

***

تو أن تنتهي الحركة الاستعراضية الوحيده. يعود البيلارين إلى وضعيتهما السابقة 2–4 و 4–4 مجددًا قبل أن ينهيان في هدوء

***

من جديد التهبت يداي بالتصفيق، ارتفعت حدود العاطفة في تلك الرقصة رغم قلة استعراضيتها.. كان الحب هنا للمكان..للذات، وتقديرها لم يكن الحب رجلًا وامرأة.. كان حب امرأة لحياة ألفتها..وردة هي زهرة.. هي إنسان مستحق للتقدير ورغم بساطة أصولها، إنها بالفعل تثبت استحقاقها لمكانتها ههنا في المليلونجا.. راقصةً،وراويةً لقصة خلف الرقصة.

أثبتت زهرة أن بلوريتارية (مثلي) قد تكون نجمة في هذا المجال.. المجال المبني على المشاعر الخالصة.

امتلأت حماسة مُجدّدًا، وبحثت عمّا قد يشعل حماستي أكثر وباتسامة قرّرت أن الرقصة القادمة ستكون "صولو".

***

تانجو صولو

صعد الفتى المراقص لزهرة هذه المرة، وصعدت إليه فتاة تماثل نحول جسده..

– حسنًا، بطل الليلة له شريكة مغايرة تلك المرة..

صدح صوت فريدي عبر الميكروفون:

– في حانات بوينيس أيريس الرخصية قبيل منتصف القرن التاسع عشر، مورس الصولو تانجو كرقصة تمارسها راقصة وحيدة على موسيقى مغوية تتشابه وإيقاعات الفلامنكو الممزوج بخطوات الروبما في عروض منفصلة تشبه عروض الرقص الشرقي الحالية. ما لبث أن اعتبر هذا الفن فنا خلاعيًّا مستهجنًا ومن ثم توقف تقديمه تمامًا لاعتماده على الإغواء، عاد التانجو صولو للظهور في نهايات القرن العشرين كعمل استعراضي ترفيهي صرف ولم يعد مقتصرًا على النساء.

فقط عشاق التانجو يشاهدون راقصًا وحيدًا على خشبة المسرح يتفاخر هو بقدراته ويتمنون هم أن يكونون مكانه. نتحاور معها على نغمات "ليبر تانجو"، كتبها الخالد استور بياتزولا في عام **1974** لذا تعتبر من المقطوعات الحديثة نوعًا ما وتوضح اتجاه بياتزولا للشكل الأكثر تحررًا في التانجو نحو التانجو نويفو، والاسم هو جناس تركيبي بين كلمتي (ليبرتاد) الحرية،وتانجو،تانجو الحرية من عزف حي لفرقة (أوركسترا الفيلهارمونيك الروسي) في سبتمبر **2010**.

***

لي قصة صغيرة أريد سردها.. عني وعن فتاة ما..تريد أن تعرف من أنا؟! محمد أبو العنين، ابن الذوات، الشيك، المدلل.. لكن لا تحسبني أبدًا شخصًا أجوف، أقسم لك أني لست كذلك.. إن لي أفكارًا عميقة جدًّا.. بالقطع ليست كل أفكاري ولست كذلك دائمًا ولكن.. دعني أقص عليك تلك القصة بينما أنا في إحدى حالات العمق الفكري.. سأحكي عنها.

أعترف أنني تعرفت إليها من الشارع.. حيث لن يمكنك التعرف إلى فتاة محترمة أبدًا فالفارق بينه – أي الشارع – وبين أي مكان آخر هو فكرة القواسم المشتركة التي ربما تكون الحجة الجيدة لتتعرف إلى زميلة دراسة، صديقة نادٍ أو جارة مجلس أو ما شابه، لكن القاسم المشترك بين كل من يسيرون في الشارع هو.. شمس الصيف التي تحرق رؤوسهم لكن حتى تلك لم تكن تلمسني مباشرة من خلال زجاج سيارتي.

اسمها شيرين.. من طبقات المجتمع الدنيا، تلك الطبقة التي طالما تسمع عنها في حكايات الآخرين وتراها على شاشات التلفاز وتقرأ عنها في روايات نجيب محفوظ، لكنك أبدًا لا تراها؟! أتعلم لِمَ؟ لأنهم جزء منك هم ذاوتا عينيك وشعرك وعاداتك وأسلوب حديثك.. ببساطة ليسوا من كوكب آخر وهم لكنتهم وملبسهم وعاداتهم الخاصة، كما يتصور البعض ويحاولون إقحامك في تصورهم.. فقط شيء واحد، تفصيلة صغيرة من تفاصيل حياتهم تفصلهم عنك.. نظرتهم نحو الحياة.

***

مع الأوكورديون يجلس الجانشو وحيدًا.. اختارت الجنشادا أن ترقص منفردة، حركاتها بين الشيرشيه الباحث بالذراعان،وإمالة الكتفان مع الخطوات الرباعية للقدم لتُشبه نوع خاص من الفلامنكو الغير عنيف.

***

أتذكر حين قالت لي شيرين: (امتى حنتجوز يا محمد؟) في البداية ضحكت من الفتاة اعتقدت أنها تحاول التذاكي أو إيقاعي في حبائل الزواج، أو على الأقل تمازحني، لكني وبمنتهى البساطة اكتشفت كم هي بلهاء! جوفاء! رقيقة كالنسيم حين نظرت إليَّ مستنكرة لتثبت لي نظرة البلاهة تلك أن شيرين كانت حقًا تعني ما تقول، وأنها اعتبرت معرفتي الطويلة لها مقدمة لزواجنا، هل انحنيت عليها مُقبلًا؟ لا أذكر فلطالما حدث ذلك في نفس الموقع في نفس السيارة، معها ومع غيرها.

لا لكني أذكر تلك القبلة جيدًا، وأذكر ارتعاد شفتيها حين لامستا شفتيَّ، لم تكن قبلة سلسة كغيرها. قاطعتها هي حين نطقت تلك العبارة التي لم أفهمها حينها:

- تاني؟ ليه بس كده.

***

يلتقي البيلارين في المنتصف، في وضع مفتوح لمغلق، يدفع الجانشو الجانشادا لتسير بظهرها للخلف بينما يتقدم منها، تقاوم لتفرد قامتها، وتستدير فيُصبح ظهرها مُقابل لصدره، يُمسكها من ذراعاها فتميل للأمام بينما قدماها ثابتتان قبل أن تعود للأصل و يعودان للتمايل 2-4-2.

***

إن شيرين تنظر للحياة بمنظور الفرص السانحة، وإن لم تكن هناك واحدة فعليها إيجادها. أي فرصة لتقتنص.. بينما أنا أنظر للحياة على أنها.. تسلسل للأحداث بلا قواطع أو عقد متعاظمة أو فرص لأني ربما أكون أنا الفرصة أو على الأقل.. صانعها. هل هو المال ما يخلق تلك الفوارق الطفيفة الكبيرة؟! ربما. بل أكيد.

بالطبع أعلم أن شفتي لم تكونا الأوليين اللتان تقبلانها، وأن يدي لم تكونا الأوليين في ملامستها كما كانت هو أكيد أن احمرار شفتيها لم يكن الأول أو الوحيد على ياقة قميصي. لكن لا أنكر أن سعادتي كانت غامرة

حين علمت أن يدي لم يكن لها شريك في جسدها، وأن قبلاتي لم تكن متبوعة بقبلات غيري..أعتقد أن معرفتي ذلك قد أوجدت فرقًا بين علاقتي بشيرين وعلاقاتي بالأخريات.. ما ذلك الفارق بالضبط؟ لا أعلم.

هي ليست عاهرة.. أنا لم أعطها مالًا قبلًا، وهي لم تطلب، كانت تكتفي بالوجاهة الاجتماعية المتمثلة بركوبها سيارة فارهة إلى جانب شاب وسيم أو الجلوس في مكان راقٍ والتعامل معها ك(هانم) حين عرفت ذلك بدأت أفهم الكثير عن شيرين.. بدأت أراها لأول مره بصورة غير صورة شيرين الفتاة اللعوب..تعرّفت لأول مرة إلى شيرين قناصة الفرص التي تضحي بالكثير من أجل فرصة.. لكن للأسف كانت أغبى من أن تقتنص أيها فعلًا.

كنت فرحًا، وأنا أخبر محمودًا صديقي عن اكتشافي المذهل حول فتاتي اللعوب، ولكن قابلتني خيبة الأمل حين أخبرني أنني لم أكتشف شيئًا جديدًا، ومعظم من عرفهن هو الآخر كن إما يبحثن عن الوجاهة الاجتماعية المفقودة بين أوساطهن أو كن يبحثن عن فرصة الزواج بشخص مناسب، ويعتقدن أنهن ينصبن الشباك حولك حين يتركنك تعبث بهن، بينما أنت بعيد جدًّا عن تلك الشباك.. هن لسن عاهرات..فقط سيئات السلوك. يؤدين لعبة خطرة، قلما تصبن فيها، لكنهن يعلمن أن الربح يليه جائزة تغير تمامًا من حياتهن. غنيٌّ عن الذكر رغبة محمود العارمة في أن أعرفه بشرين، وكما اقتبس من كلماته (سلفهالي).

كان يتحدث عنها دون اكتراث لا كبشر، جعلتني كلماته أتساءل من المسؤول عن تحول شيرين ومثيلاتها إلى شيء يُقترض ويتم تبادله، هل هن المسؤولات أو بيئتهم المعدمة حيث كل الأشياء ترى ولا تقتنى؟!

حين بدأت تبتعد عني من أسابيع..أي منذ ضحكت من رغبتها الاقتران بي كنت أعتقد في البداية أنها غاضبة وسرعان ما تنسى ما كان ونعود كما تعودنا، ولكن بعد أسبوع أو يزيد علمت من محمود عن رؤيته لها بصحبة أحدهم في سيارة.. حينها أسرعت الاتصال بها.

كنت أتحدث معها كأني أنفث اللهب في سماعة الهاتف.. سألت عن الشخص، لم تجب، طلبت.. بل أمرت أن أراها فجاوبتني في برود:

- مقدرش..إنت عارف أنا مقدرش أعرف اتنين في وقت واحد.. سوري يا محمد.

وأغلقت الخط دون أن أفهم.. أو قل قبل أن أفهم ما تقول.

حينها قررت الانتقام، حادثت نفسي أن الوقت قد حان لأخذ دوري في لعبة شيرين تلك. ستصبح لعبة مزدوجة بيننا.. مللت كوني الجائزة.

لكن والحق يقال لم أكن نادمًا حين تربصت بالفتى.. فتاها الجديد في مشاجرة لتأديبه.. لم يولد بعد من يأخذ مني إحداهن، ولم يخرج بصحبتها بعد ذلك قط. آثر الفتى أن ينجو بنفسه من المشكلات، وهي ليست بالشيء المهم ليضع نفسه في شجار من أجلها، فأمثالها كثيرات.. كان ذلك مضمون كلماته مع محمود حين تقابلا (للتصافي) بعد العراك.

وأيقنت من جديد أن نظرتي لشيرين نظرة عامة، وشعرت أني أشفق عليها من ذلك الإطار حيث حبست ربما للأبد، فحين تصير للفتاة (سمعة) ما.. فهي لا تستطيع أبدًا التخلص منها مهما تحاول وتتفانَ من أجل ذلك. شعرت لأول مرة أن شيرين هي الأخرى مجبورة على تلك اللعبة، ولن تستطيع التخلص منها. تمامًا كالمخدر الذي تتعاطه في البداية كي تنتشي ولا يمر وقت طويل حتى تكون مجبرًا على تعاطيه، وكما هي مجبرة عليها، فإنها تجبرني على أن أنظر إليها من خلال سمعتها! أو هم الآخرون من يجبرونني على ذلك.. لا أعلم، ولكن المحصلة هي أن سمعة شيرين هي النافذة التي أتطلع من خلالها لشيرين شخصيًّا.

وكنت في انتظار أن تهاتفني بعدها، اعتقدت أن مهاتفتها لي هي جائزتي عن لعبتي الصغيرة.. في منتهى الغرور انتظرت كأني بعد تلك المشاجرة أعلنت ملكيتي لها حيث لا أحد سواي!

خذلتني ولم تتصل، بل قل خذلني عقلي المشوش حين لم تتصل. وقررت الاتصال بها بعد أسبوعين أخرين.

كنت أحادثها بمنتهى البرود، كانت تحاول ادعاءه هي الأخرى من خلال كلماتها المقتضبة السريعة، لكني كنت أحس بإثارة ما في أسلوب حديثها، تأكدت منه حين قالت:

- مش فاضيه.. محمد..أنا اتخطبت من أسبوع.

شعرت بالأرض تميد تحتي.. لمَ؟! لا تسأل، فأنا لم أكن قد علمت بعد.

حاولت ساعتها أن أتدارك موقفي دون جدوى حين قلت:

- إنتِ فين دلوقت؟

ردّت ربما في حرص كما أعتقد الآن، وربما في برود من يذبح دجاجه كما اعتقدت حينها.

- حيعدّي عليّ، ونخرج.

- أنا عايز أشوفكم.. حالًا..حتروحو فين.. فين؟

- أرجوك يا محمد متعمليّش فضايح.

مش حعمل زفت، ولو مش عايزه فضايح بجد تنطقي رايحين فين؟

***

يتبادل الجانشو، والجنشادا الجلوس.. فتجلس هي مُنهكة بينما يقوم هو ليستعرض، وعلى عكسها فإن حركاته تعتمد على ثني السيقان، والتقدم بساق، ونصف أمامًا، وخلفًا في وضعيات الفلامنكو العنيفة، وإن حافظ على يديه في وضع افقي بزاوية.

***

كانت تعرف أنه بإمكاني فعل أي شيء حين أغضب وكانت أيضًا تعرف أنني لست من النوع الذي يقول ما لا يفعله، وثقت بي وقالت أين كانا.

بينما كنت في السيارة أستشيط غضبًا، وجدت نفسي أتساءل مجددًا:

– لِمَ أنا غاضب هكذا؟ سرعان ما وجدت إجابة سؤالي في رؤيتي ليدها المتشابكتة بيديه. لأنه إنسان على ما يبدو عليه بسيط مثلها. إنه ليس إحدى فرصها، بل لعلها تبادلت معه الأدوار لتصير فرصته لتكوين حياة، ووجدت نفسي أتعجب.. هل تخلّت شيرين حقًا عن فكرتها في الزواج بشخص غني؟ هل اكتفت بكلمة الزواج غير متبوعة بكلمات أخرى؟ واكتشفت – و يا للهول– أن شيرين بذلك أيضًا إنما تجبرني أنا الآخر على التوقف عن التلاعب بمشاعرها وجسدها. تخبرني بطريقتها هي أن أذهب لأخرى.. لكن فقط أذهب عني!

وفي الشارع تحت شمس الصيف الحارقة اكتشفت أنها وجدت ذلك القاسم المشترك في فتاها الجديد القاسم الذي لم يكن ليوجد بينها وبين فتى السيارة الذي تشاجرت معه أو مع أي شاب آخر يشبهه.. يشبهني.

نزلت مسرعًا عن السيارة وجريت نحوهما:

– إزيك يا شيرين؟ هو حضرته؟

– مين ده يا شيرين؟

قال متعجبًا دون استنكار بنظرة تجمع بين الابتسام و البلاهة.

– دا محمد.. زميلي في المعهد.

نظرت لها متعجبًا من سرعتها في اختلاق كيان لي يربطني بها، ولا أنكر أنني فكرت للحظة في إنكار ذلك، ولكن وعد قطعته أن لا أفضحها منعني.

- أهلًا..تشرفنا.

ومَدَّ لي يديه مصافحًا في أدب، كان في انتظار أن أعلن لَمَ أنا هنا، وما أريده منهما، ولكني للحظة لم أستطع تحديد ذلك حتى لنفسي.. ماذا أريد وماذا أفعل، من فرط انفعالي، وتعب مقلتي عيني من جراء الالتفات نحو أعينهما دون توقف، من شدة حرارة الجو حيث نقف، ومن وخز خفيف في قلبي وجدتني أقرر:

- عن إذنكما.

تركتهما وذهبت.. ركبت سيارتي، ودمعة ذرفتها كانت تقول لي.. ربما لم أكن بعيدًا جدًّا عن شباكها كما اعتقدت..

***

يظل الجانشو على استعراضيته بينما تتجه هي إلى ركن حلبة الرقص، وتستند على أحد أعمدة الإضاءة الزاهية، الآن الجانشو يرقص وحيدًا لكليهما.

***

أقول لكم إنني غير راضٍ.. أنا راضٍ تمامًا عما حدث له.. عما فعلته به.. لكن القصة تحتاج إلى...؟!!!

- شيء عميق !!

نطق فريدي بالنيابة عني، وكأنه يعرف ما أودُّ البوح به..

- ميعاد تارت البيكان.

قال تلك المرة معلنًا عن الكورتينا الثالثة، بينما توجه إلى بطبق كان قد أعده سلفًا:

- الحياة زي تارت البيكان.. دُقته قبل كده؟

- لا بس قريت قصته.

- تارت البيكان لذيذ مفيش كلام.. بس عمره ما بيقدملك اللي انت حقيقي بتتمناه يا عاطف.. بيقدملك بس المسموح ليك بيه من لذة.. يا تستتم نفسك عليه.. يا تعيش رافضه.. يا تدوّر على صنف تاني.. مش دايمًا الحياة بتكون عادله.. ليه عايز التانجو يكون عادل؟

***

الكورتينا الثالثة

تارت البيكان..Pecan Tart

وحيدًا إلى جانب الباب، وعلى الكرسي العالي المواجه للبار وجدته يلوك بقايا حلوى تارت البيكان..طالما اقتنعت أن الحلوى ووحدها الحلوى هي أقوى ما يستطيع رسم الابتسامة على أكثر الوجوه كآبة بمجرد ملامستها لشفاهنا.. لكنه لم يكن مبتسمًا. ليس بائسًا على أي حال لكن سعادة الحلوى المميزة لم تكن مرتسمة على وجهه. وجدتني دون سبب أتوجه إليه وأساله. لم أحييه ولم يرد التحية وإن تعجب للقائي دون موعد.

– لَم لستَ فرحًا؟

تردّد قليلًا قبل أن يقرر في النهاية الكلام:

– بصراحة..أنا..لا أحب البيكان.

- ولماذا اشتريته؟

استدار تجاه النضاد حيث رصت الحلوى والمشروبات فوقه وداخل فاترينيته الزجاجية، ونظر نظرة آملة.

- ليس هناك سوى تارت البيكان دائمًا تارت البيكان.. مهما حضرت مبكرًا أو متأخرا.. مهما حجزت أنواعًا أخرى.. في البداية اعتقدت أنهم يصنعون تارت البيكان لأنه صنف مطلوب.. لكن اكتشفت أن أحدًا هنا لا يحبه، وأحدًا لا يأكله سواي.. لكن أنواع أخرى في طريقها للنضج في الفرن..أنا متأكد،أنا هنا منذ الصباح.. قرّرت أنني سأتذوق أصنافًا أخرى.

أشار لي مع جملته أن أجلس وبمجرد أن لامس جسدي الكرسي العالي كان النادل بجانبي يسألني.. نظرت بعيني فوجدت صورها تختال أمامي في قائمة الطلبات بلونها الأبيض الشاحب، ومهرجان اللون الأحمر المنسدل من أعلاها ليعد كل من سيتذوقها بلذة شديدة، وابتسامة عرضها هو عرض المسافة بين أذنيه..

- التشيز كيك.. أريد قطعة تشيز كيك.

أسر لي الفتى..

- لكن التشيز كيك بالحجز..أنت ترى زحام المكان تلك الليلة.. و...

هامسًا.. غامزًا.. مُتآمرًا وجدتني أقول بأسلوب جواسيس الأنواع القديمة:

- أحضر التشيز كيك أولًا، وبعدها سنرى ما يمكنني فعله في أمر الحجز حين أدفع الحساب.

ابتسم الفتى، ومشى في هدوء بينما عينا صديقي معلقتان عليّ والسؤال يدور بخلده عما فعلت، ولأني لم أجد ردًا جاهزًا له فقد ابتسمت بركن فمي الأيمن في بلاهة قبل أن يباغتني:

- حلوى التشيز كيك بالحجز، وحين يخرج البراونيز من الفرن فإن الثلاثة ههناك.

(أشار بيده إلى ثلاث مفتولي العضلات).. يسحبون الوارد كله، ولن تستطيع مواجهتهم على الكاشير.. المطعم بالدور العلوي لديهم مشكلة فقرروا شراء كل ما تنتجه الكافيتريا ههنا من بلاك فورست لزبائنهم، وعليك أن تأكل هناك لتتزوق البلاك فورست..هناك سيدة تشتري حلوى الفدج كاملة كما هي كل يوم، وتجلس بالركن البعيد تلتهمها في جنون بشكل يثير الاشمئزاز دون أن ينتبه لها أحد.. لم يعد لديهم سوى الآيس كريم في منتصف يناير.. وتارت البيكان!

تلفّت حولي لأجد نادلًا يحمل صينية كبيرة بما خرج من المطبخ من فدج نحو البدينة التي تلطخ وجهها باللون البني في الركن، بينما الثلاثة قناطير توجهوا نحو الكاشير عازمين ألا يسبقهم أحد للبراونيز..كعكتا بلاك فورست كبيرتان خرجتا على يد نادل ليخرج بهما من الكافيتريا ككل، ونادل وحيد يرص داخل الفاترينة بعض قطع تارت البيكان.

بينما توجّه نحوي النادل بطبق التشيز كيك.. ناولني الشوكة ورحل باسمًا.. لم أستسغ أن أتذوق التشيز كيك ورسالة صديقي قد اخترقت ذهني كالرصاصة.. مددت يدي نحوه بالشوكة فما كان منه إلا أن رفع يده للنادل الذي أتى من فوره:

- أعتقد أني سأطلب.. المزيد من تارت البيكان.

***

التهمت تارت البيكان.. حسنًا.. كان صنف حلوى تكشفيًا جدًّا.. حقيقة لا مبالغة عليكم أن تجربوه..الغريب أن هذا الصنف الفرنسي الراقي يباع بأسعار مبالغة رغم أنني أراهن أنه أقل الأصناف طلبًا ومبيعًا..

كنت قد أُنهكت.. عاطفيًا، ونفسيًا وجسديًا.. حسنا.. نفذت اختياراتي ولم يتبقَّ لي شيء.. لم أكن أعرف ما الذي سيحدث.

لكن بمجرد انتهاء الجميع من تبادل الأحاديث الخفيفة، والتهام تارت البيكان ودون دعوة فريدي..كانوا جميعًا يدخلون الحلبة، ووجدت نفسي محاطًا بالناس..كانت ألوان ملابس النساء تتداخل.. ضحكات الرجال.. لم يكن أي زوج ممن رقصوا سلفًا يفرض ذاته على ذات الشريك..دعوات عشوائية للرقص بين الرجال والنساء التفت حولي فوجدت استريد تقف أمامي.. وقفت صامتًا قليلًا فاقتربت برأسها مني.

- مينفعش الست تطلب من الراجل الرقص، ومينفعش أستناك.. عيب.

مددت يدي قائلًا:

– تسمحيلي بالرقـ...؟

قاطعتني ضاحكة..

– الجملة دي كليشيه قوي.. مش لازم تقولها.. يكفي ابتسامة لطيفة فيها تقدير.. زي اللي على وشك دي.

تأبطت ذراعي في هدوء.

– إحنا مش هنستعرض..إحنا هنرقص ببساطه 1-1-2-1 أربع خطوات، وستوب.. دلوقتي إحنا بنختم الليلة.

من مكانه وقف فريدي في آخر الحلبة لا يشاركنا الرقص وجدته يمسك بفايولين مستعدًا للعزف.. قائلًا في إعجاب مشوب بالتقدير كأنه سيتلو علينا سفر الأسفار الكونية.

***

لا دانزا فينال[8]:

في هدوء كاهن يقترب من مذبح أمسك بالمايكروفون لآخر مرة تلك الليلة:

– فلنقم جميعًا، كل من بالميلونجا، دعونا نرقص الرقصة الختامية للحياة الممتلئة بالمشاعر.. بالحب.. بالحياة نرقص معًا (فانتازيا) نسخة التانجو التي تطورت بين 1940 إلى 1950 التي لا تعني الرقصة فقط، ولكنها معنية بـــ نوع الموسيقى والرقصة والملابس الراقصة.نخرج التانجو من أسلوبه القياسي إلى أسلوب أكثر تحررًا نرقصها معًا على أنغام "لا كومبارسيتا" ألفها موسيقىر أوروجواي الشهير جيراردو ماتوس رودريجز وكتب كلماها باسكال كونتورسي وأعاد كتابتها أنريكو بيدرو ماروني عام 1916.

أضاف إليها عازف البيانو الشهير روبيرتو فيربو جملًا من مقطوعات أخرى مثل "لا جوتشا مانويلا، كوردا كومبليتا" فصارت الكومبارسيتا

---

[8]– الرقصة الأخيرة

التي نعرفها الآن. وعُزفت لأول مرة في مقهى (كافيه لاجيرالدا) في مونتيفيدو. كومبارسيتا تعني التجمع. وبحكم القانون فإن كومبارسيتا تعد و منذ العام 1997 هي الموسيقى الشعبية الثقافية الرسمية للأوروجواي. نستمع إليها في عرض حي من فربرجيين هول سيدني أستراليا في نوفمبر 2013.

***

الآن، وقد تعلمتم كل الحركات الممكنة، والمقبولة في الميلونجا. عليكم الاستعداد لممارستها شخصيًا، الآن حلبة الرقص مملوءة عن آخرها عليكم أن تقرّروا حركات كل زوج من البيلارين.. عليكم أن تُنظموا حركاتهم بأنفسكم حتى نصل إلى الكمال.

***

كدت أفقد توازني مرتين وأنا أصعد درجات الدرج العالية من جراء تعلق ناظري بتلك النقوش القديمة على الحائط، وحادثت نفسي أنني كنت قد بدأت أنسى تلك النقوش أو ربما كنت قد محوتها من ذاكرتي عن عمد.

وحين فتح لي الباب أُقسم أنني فوجئت بعم عربي.. لم أكن أحسب أبدًا أنه لا يزال على قيد الحياة بوجهه المليء بالتجاعيد وبذلته السوداء وشاربه الأبيض الكث.. فتح لي الباب مُرحبًا كنت أرى في عينيه رغبة ما في احتضاني.. أنا ولده الذي رباه كما قال لي قبل أن أترك هذا المنزل من

سنين، ولذا لم أجد مانعًا في نفسي من أن أتركه يضمني إلى صدره في حنان واضح.

– أشرف.. إزيك.. كده مشوفكش من يوم ما سبت البيت!

– إزيك يا عم عربي.. أخبارك وأخبار البيت إيه؟

وقبل أن يهم بالإجابة كانت درية قد ظهرت في آخر الرواق تبتسم ابتسامتها المعهودة التي تعبر بها عن السخط أحيانًا والسخرية أحيانًا ولكنها ابتسامة أبعد ما تكون عن السعادة.

كانت تشير إليّ أن أذهب إليها بيديها بينما دخان السيجارة في فمها يكاد يخفي عينيها عني.. كانت جميلة ربما هي أجمل امرأة رأيتها في حياتي تُضاهي في جمالها بنات العشرين كأنها صبية في الخمسين من عمرها بشعرها الأحمر القصير جدًّا وفستانها الفاتح القصير أيضًا، وحين وصلت إليها ضمتني ضمة لا حياة فيها وقبلتني على وجنتي كنوع من العادة البحتة التي لا روح فيها.

– ماما مستنياك جوه.. إيه اللي أخّرك؟

– عربيتي عند الميكانيكي، وانت عارفة التاكسيات زفت.

– حسين جوه.. يا ريت تتجنبه علشان الليلة تعدي.

– تفكتري أخوكي حد يعرف يتجنبه؟! هيدّيني فرصة.

وبدون مزيد من الكلمات دلفنا إلى الحجرة التي تجمعت بها العائلة كلها في ذلك الحفل المقام بسبب ترشيح أخي حسين لمنصب وزاري ما لم أهتم بمعرفته.

حسين وأنا لم نكن على وفاق قط، أعتقد أنه شيء عادي أن يعاملك أخوك الأكبر بازدراء حين يكون فارق السن بينكما يداني العشرين عامًا.

ثم هناك درية أختي تكبرني بما يزيد عن الخمسة عشر هي الأخرى لا تعاملني بازدراء مثل حسين، ولكنها تعامل الكل بهذا الشكل منذ زمن ليس بالقريب، وأخيرًا ثريا ربما كوننا متقاربين نسبيًّا في العمر هو ما جعلها أقربهم لي وأقربني لها فهي الوحيدة التي لم تعاملني ابدا كطفل، بينما هم يغالون في ذلك الأسلوب حتى بعد أن تخطيت الثلاثين، وبينما أولاد إخوتي المختلفة أعمارهم بين الشباب والطفولة ينظرون إليّ بشوق أعرفه وأحبه فيهم دلفت إلى الداخل واختصرت تحية الجميع بأن وزعت الابتسامات الصامتة وأشرت بيدي للجميع مع إشارات خاصة لعماد ابن اخي حسين بينما عيناي تبحثان عنها.. حتى وجدت ضالتي.

كانت تجلس أنيقة ليست جميلة أي نعم، ولكن لها درجة من الوسامة المخلوطة برونق العظمة تجعلك تهوى النظر إليها على كرسيها المتحرك تتشح بالسواد وتظهر خصلة ما من شعرها الفضي، بينما تنظر بتمعن من خلف نظارتها الغليظة، وتكاد لا ترانا بعينيها شبه المغلقتين، وبهدوء قالت:

- أشرف جه يا ولاد؟

وقبل أن يجيب أحدهم كنت قد جريت نحوها وجلست تحت قدميها.. أمسكت بيديها العجوز وقبلتها قائلًا:

- أنا هنا يا أمي.. وحشاني.

لم تُكلّف نفسها عناء التوجه بعينيا نحوي فهي تدرك أنها مهما تحاول فلن تراني كما تتمنى؛ ولذا وجدتها تكتفي بأن ربتت على وجنتي مبتسمة بينما تجاهد كي تقول:

- مبتسألش على ماما أبدًا.. سنة يا أشرف؟ سنة؟!

- بطمن على حضرتك من درية على طول، وحضرتك عارف أن مجيي البيت.. الظروف يعني.

وعندها وجدت من ينحني من خلفي ليحادثني بأذني:

- مش وقته مش وقته.. إحنا بنحتفل.

ولثمتني قبل أن تقوم عني، وتقول بصوتها الجهوري المرح:

- طيب أشرف جه.. نحضّر البوفيه..كده كملنا..

أكملت ومن ثم رفعت صوتها بحدة:

- ياللا يا بنات..تعالوا ساعدوا عمتكم.

وذهبت ثريا.. ربما هي الوحيدة في هذه الأسرة التي تضحك دائمًا وهي معنا، ربما لأنها تبكي دائمًا وهي وحدها تعيش مع أسرة تتكون من أم عجوز مريضة وخادم عجوز تخدمه هي شخصيًّا!

وقمت عن قدم أمي أنا الآخر وذهبت لتحية حافظ زوج أختي.. كنت لا أستطيع أن أتماسك عن الضحك من مرأى ذلك الرجل الكري الشكل الذي لا يليق سنًا ولا شكلًا مع تلك العصفورة درية.

- إزيّك يا أشرف؟ عامل إيه؟ لسه بتألّف؟

قالها ضاحكًا غير متأكد إن كانت (بتألف) تعد وظيفة أم هواية.

- الحمد لله.. بكتب، وبنشر، والناس بتقرا.

- على الأقل مبقيتش صايع.

- عمي دلوقتي كاتب كبير جدًا يا أونكل حافظ.

ونظرت ممتنًا نحو عماد الذي انطلق بعد جملته الحادة الموجة لحافظ تجاهي وأخذني من يدي نحو الرواق ليتحدّث معي.

- إزيّك يا عمو؟ واحشني..بس.. في حاجات ضروري عايز أتكلم معاك فيها.. بص.. محدّش هيحللي المشكلة دي غيرك.

- طيب ومتوتر ليه؟ عدي عليّا بكره في البيت.

قلتها رابتًا على رأسه، ولاحظت ضيقه من ردة فعلي، حسنًا، فلقد كبر على ذلك.. في الواقع كلنا كبرنا بشكل ملحوظ.

- أوك.. بس مش هاجي لوحدي.

قالها ناظرًا نحوي في ترجٍّ.

- تنوّر إنت، وضيوفك..

- ضيفة واحدة.

ابتسمت له، وأنا فرح بأن الفتى قد صار رجلًا له فتاة ومشكلات وحياة.

- بكرا.. هعدّي على حضرتك بكرا.

قالها، وذهب مسرعًا إلى الداخل من حيث خرج والده مبتسمًا تلك الابتسامة التي اشتهرت بها العائلة.

احتضنني بود وإن كانت قبلاته باردة.

- إزيّك يا أشرف؟ سامع عنك سمع خير.

- الحمد لله.

لا أعلم، هل كان ردي مقتضبًا تجنبًا له كما نصحتني درية.. أم أنني لم أستطع فعليًا الحديث إليه؟

تركني في طريقه إلى الصالة مجددًا، وقبل أن يغيب عن ناظري استدار نحوي كأنه تذكر شيئًا ما:

- أشرف إنت ليه زعلان مني؟! أنا.. كنت.. عايز مصلحتك.

- عارف.

- لكن إنت غضبان.

- مش مهم.

عاد أدراجه وأمسكني من كتفي متطلعًا إليّ لثوانٍ، ومن ثم تابع وكأنه لم يكن ينتوي أن يتركني فعليًا.

– تعالى معايا على أوضتك.. عايز أقولك كلمتين.

– مبقتش أوضتي.. بقت أوضة عماد.. ولا إيه؟

– طول عمرها أوضتك.

رضخت له في النهاية، وانسقت مع توجيه يديه، وحين دخلنا الحجرة معًا وجدتها قد صارت مختلفة.. ليس كليًا ففي النهاية هي حجرة شاب كما كانت لشاب في يوم من الأيام، ولكن ربما روح العصر هو ما جعلها مختلفة، ولكنها في النهاية نفس الحجرة بذات الأرضية الخشبية العتيقة، والسقف العالي والنوافذ الضخمة التي استعملها الفتى الآن كرف لوضع كتبه عليها.

– عايز إيه يا ناجي؟

جلس على الفراش ونظر للأرض لثوانٍ وأخذ نفسًا عميقًا.

– عايز أصالحك، أشرحلك، عايز.. مش عارف يا أشرف. بس اكتشفت في لحظة إني عايش لوحدي.. يمكن أنا عايش لمراتي وولادي.. بس الأكيد إني مش عايش معاهم. الولاد بيكبروا وكل واحد فيهم بقى ليه شخصيه وحياه منفصله، وسامية إنت عارف إن ليها حياة منفصلة حتى من قبل ما نتجوز.. زوجة صالحة..مظبوطة.. مظبوطة قوي.. لدرجة إنك متعرفش تطلع لها غلطه، ولا حتى شعور إنساني طبيعي.

- معتقدش إنك اكتشفت الحاجات دي أول امبارح يا أبيه.

خرجت مني كلمة (أبيه) عن غير قصد رغم عني، وبالرغم من تعمدي نزع الألقاب عن الجميع.

- عارف.. بس اللي اكتشفته مؤخرًا.. هو إني بحبك قوي يا أشرف، ومحتاجك قوي.. يمكن أكتر من أي حد تاني.. إنت ابني يا أشرف.. أنا مخترتش ده بس إنت فجأة اتولدت،ولقيتك ابني..أنا فقير قوي يا أشرف.. فقير عاطفيًا.. وانت مليان مشاعر.

- بتحبني؟! إنت طردتني فعليًا من بيت أبويا.. اتلككتلي علشان تخرّجني من بيتي يا ناجي.. إنت لزقت فيا لقب صايع من غير سبب واضح، جوز أختك متكسفش يقولي صايع قدام أمك وولادك برا من خمس دقايق، ولولا فرق السن كنت اديته على دماغه.

افهمني يا أشرف..أو على الأقل قدّر موقفي أيامها.. أنا كنت كبرت.. حسّيت إن العمر بيجري بيّا، وأنا بجري وبجري وبجري ومبوصلش لحاجة.. متجوز في بيت أبويا، مخلف اتنين ومسؤول عن عنهم وعن أمي وأخويا وأختي الصغيرين.. الوضع صعب والمسؤولية تهد الحيل.. أنا عارف إني غلطت لما عوزت أخرّجك انت وريا برا حياتي.. لا هي جوازها طوّلت ولا إنت عمرك سامحتني.. الكل بيكرهني يا أشرف وأنا عارف كده.. حتى ولادي بيكرهوني.. بحسها في كلامهم وتصرفاتهم.. عيونهم بتقولي إنت جاحد لأهلك يا بابا.. أنا خايف يجحدوني يا أشرف.. أنا عايزهم، وعايزك.. أنا عايزكوا جنبي.

وأخذ في البكاء.. إنها المرة الأولى التي أرى فيها أخي الكبير ينهار، ويبكي أمام عيني، وخالجني شعور بذنب لم أقترفه، فبالرغم من كل شيء فقد بكى ذلك الجبل الشامخ أمامي أنا فقط.

وانحنيت على جسده المنكمش على الفراش واحتضنته بقوة .

– ناجي..إنت بتقول كده ليه؟! ولادك بيحبوك، وانت زي الفل.. ليه بتفكر كده؟

– الترقيه دي يا أشرف مش أكتر من لقب مشرف أطلع بيه على المعاش.

صمت وأنا أدرك أن حالته النفسة المختلطة منطقية تمامًا لمن هم على مشارف المعاش حين ينتقلون من أقصى مراحل القوى الاجتماعية والعملية إلى مرحلة السكون الإجباري. حسنًا، إن دافعه للكلام، وطلب الغفران ليس أخلاقيًا تمامًا.. لكنه أخي.. شعرت بعطف شديد نحوه لا أنكره ولم يمنعه إدراكي له.

– أشرف.. إنت فاهمني؟!

– فاهمك يا أبيه.

– مسامحني؟

– إنت أخويا الكبير..

– أنا واثق فيك يا أشرف.

- مش فاهمك.

- واثق إنك مش هتسيبني لوحدي أبدًا.

وخرجنا من الحجرة على أصوات ساميه زوجته وثريا تنادينا للبوفيه، وخرجت حين اصطدمت بسامية، وحييتها، لم تكن سامية تكرهني ولا تحبني،ولكن على الأقل كانت تمارس تجاهي الواجبات العائلية والاجتماعية بشكل سليم، ربما هو متكلف قليلًا أو ربما هو نوع من البرمجة الشديدة.. وبعد أن تركتني وأمسكت بيد زوجها لتتوجه معه إلي حجرة السفرة بدأت اقتنع بما قاله لي عنها.

وأخرجتني عن أفكاري تلك الربتة الخفيفة على ظهري، وعلمت صاحبها من رائحة الدخان الشديدة.

- ها؟ اتخانقتوا تاني؟

- لا..جلّت منك المرة دي.. اتكلمنا بس.

- اتكلمتوا.. ده خارج عنيه حمرا.

- بقولك اتكلمنا.. ريحة دخانك هتموتني.

- وهتموتني أنا كمان شخصيًا قريب.

محدّش في عيلتنا دي بيدخن، وتحديدًا كل ستات العيلة عمرهم ما استجروا يبوصوا على السيجارة.. سايبينك ليه؟

- علشان أنا مش شَبَه حد فيهم.

وقاطعنا صوت مريم ابنة درية تأتي في رشاقة نحونا حيّتني قبل أن تقول في رقة:

- مامي.. بابا عايزك تعمليله طبق من البوفيه.

- يوووه.. البرميل ده مبيعملش حاجه لنفسه أبدًا.

وذهبت الأم بينما الابنة تضحك من والديها، وربّت على شعرها الأحمر الذي ورثته عن أمها، وقبل أن أذهب كانت تقول:

- خالو.

- نعم يا روح خالو.

- عماد.. أقصد.. عماد اتكلم معاك.

ونظرت في دهشة قبل أن يترجم عقلي الوضع.. إذًا تلك الحلوة هي الضيف! ابتسمت تجاهها مطمئنًا:

- مش بالظبط.. قاللي إنكوا هتزوروني بكرا، ونتكلم.. بس أعتقد إني بدأت أفهم.

- بس الموضوع مستعجل..

قالتها قبل أن تُلمّح عمادًا يقف على باب الشرفة في آخر الرواق، وتركتني تبتسم ابتسامة تحمل كل معاني الاضطراب قبل أن تتوجه إليه.. وتوجهت أنا نحو حجرة السفرة كي ألحق بأي نوع من الطعام الشهي الذي قلما أذوقه في منزلي.. منزل العزوبية.

بالرغم من الجوع وجو العائلة الذي أفتقده إلا أنني اعتدت أيضًا على حياة الوحدة كالوطاويط؛ ولذا وجدت نفسي أنسحب إلى الشرفة وحيدًا، وفي الظلام بطبقي.. هناك رأيتهما.. كان المنظر يعد كارثة لو رآه أي إنسان آخر، ولكن بعيني أنا كان منظرًا غاية في البراءة.

كانت مريم واقفة تستند إلى سور الشرفة المطلة على النيل في مشهد سينيمائي بحت لو رأيته في فيلم لقلت إنه مسروق.. تصدر صوتًا ليس بالبكاء، ولكنه أقرب إلى مواء هريرة حزينة، بينما أحاطها عماد بذراعه اليسرى، وأسند رأسها على كتفه، كان الجو العام بديكور الشرفة بين الملائكة والكراغل المنحوتة على الحائط الاثري،الأشجار التي علت فروعها لتصلنا.. هواء النيل الرطب وهدوء جاردن سيتي الذي يخرجك من حدود الزمن.. جو يشعرك بالرغبة في غناء أغنية قدية حزينة أو ربما الرقص على أنغام بايساميه موتشو. لم أمانع نفسي من الدخول وإشعارهما أيضا أنني رأيت ما يفعلان.

– إحم.. لو حد شافكوا هيدلقكوا انتوا الاتنين من هنا..

– خالو..

قالتها مريم في انكسار واضح ودمعة ما تترقرق في عينيها، وقبل أن تفر من أمامي شعرت بالقلق الذي جعلني أمسكها من كتفيها.

– في إيه يا مريم؟

– اسأل عماد يا خالو.. اسأله؟

وجرت نحو الحمام لتغسل وجهها وتختفي قليلًا عن أنظار من انشغلوا بالطعام عن معرفة مكان أولادهم.

واقتربت من عماد الذي ظهرت على وجهه معالم التوتر لأقصى درجة.

– في إيه يا عماد؟

جاوبني بصمت وقد بدأت الدموع تلتمع في عينيه هو الآخر.

– شكلك متوتر ع الآخر.. عايز سيجارة؟!

– هو انت بتدخن؟!

– لا كنت هجيبلك واحده من عمتك، ولا مبتدخنش؟!

قلتها متضاحكًا محاولًا تخفيف توتره، فأخرج سيجارة وأشعلها دون اكتراث.

– بدخن في السر.. زي كل حاجه تانية في حياتي.

ولم يتمالك الفتى نفسه أو يستطع منع الدمعة الوحيدة من عينه.

– بتحبها؟

– آه.

طيب.. إيه المشكلة؟ لو انت جاد.. هقول أنا لباباك ولمامتها..خلص انت بس، وهي كمان تخلص ومفيش مشكلة.

– الموضوع مش كده.

ونظر إليّ مبتسمًا ابتسامة السخرية التي توارثتها كل أجيال عائلتنا قبل أن يلقي عليّ القنبلة.

- مريم حامل..

وقبل أن أستوعب الكلمة ألقى عليّ قنبلة أخرى ربما أقل فتكًا من الأولى، ولكنها لا تزال قنبلة.

- إحنا متجوّزين عُرفي من أربع شهور.

أعتقد إن الوقت مناسب جدًا إني أبدأ أدخن.

وأخذت منه السيجارة، ووضعتها في فمي دون أن أشعلها وأنا أفكر فيما يجب عليّ أن أقوله.. إنهما يعلمان أنهما في ورطة، هما بلا خبرات ويريدان المشورة من إنسان مجرب و(داير) كما يعتقدان، لكن أنا بدون خبرات أنا الآخر، وأجوف جدًا على الأقل فيما يختص بمسائل الحب والزواج.

- نعمل إيه يا عمو؟

- ومسألتوش نفسكوا ليه السؤال ده من أربع شهور؟

- إنت عارف أونكل حافظ.. كان هيقول علّيا عيل ويضربها قلمين، ومكنش حد هيفهم.. كُنا عايزين نثبت أمر واقع.

- ودلوقتي..عايز إيه.. تجهضها مثلًا؟

قلتها لا استفسارًا، ولكن اختبارًا لمصداقية الفتى من جهة وإدراكه لحجم الأزمة من جهة أخرى.

– لأ طبعًا..البيبي ده ابني يا عمو، وأنا مش ناوي أقتله.. الكلمه نفسها كبيرة جدًّا عليا.. ابني..أنا مكنتش فاكر إني هبقى أب بالطريقه دي أبدًا.. أنا صغير على كده، وهي كمان.. حضرتك متخيّل إني أبقى أب.. ده منظر أب.. أنا صعبان عليّا البيبي ده قوي، المخلوق ده ميستحقش أب تافه زيي.

– خلاص.. يبقى تواجهوا الموقف بشجاعة.. المشكلة مش في البيبي، والوضع السخيف ده مش البيبي اللي عمله.. ده موجود من ساعة ما قرّرتوا تكتبوا الورقة.. الجوازة دي لازم تثبتوها شرعي.. على الأقل قبل ما تطلّقوا لو أبوك، وعمتك موافقوش على تصليح الغلطة دي.

– بس أنا مش عايز أطلّقها..أنا محكيتش لحضرتك علشان عايز أخلع من المشكلة.. أنا بقولك علشان تساعدني في حلها.. أنا بحبها يا عمو.. عمو.. أنا واثق فيك.

– في إيه؟

– إنك تساعدني في حل المشكلة.

– إيه بقى المشكله؟! أشرف.. انت بتشجع الولد على التدخين.

جاءنا صوت درية من الخلف في خبث واضح.

- هتتعلّمي إمتى تكُحّي أو تطلعي أي صوت وإنتِ داخله قبل ما تفجأينا يا (أبله)؟

- عن إذنكم.

قالها الفتى، وهو يخرج متواريًا من وجه عمته في أسلوب يمزج بين الخجل، والرعب.

- الولاد ماهم النهارده. مريم تكلمك وتعيط، ودلوقتي عماد بيعيط.. طبعًا ده غير أبوه اللي كلمك وقبلهم وعيط.. إيه النهارده يوم الاعتراف؟

- غلبان.. جوّاه طاقة.. بس الكل عايز يلجمه على طول.. عارفه بيفكرني بمين.. بيكي.. كان عندك أفكار وطموحات كبيرة.. لحد ما لجمّوكي بالعريس.

وسرحت قليلًا قبل أن تقول:

- تصدّق عندك حق.. الولد فعلًا فيه مني كتير.. بس أنا كنت أقوى.

- آه قائدة التيار العلماني وعضوة الحزب اليساري.. التسعينات وما أدراكي ما التسعينات!

- يساري إيه يا غبي؟

وسحبت السيجارة من فمي وأشعلتها.

- وقال عامل فيها مؤلف ومثقف، ومش عارف الفرق ين العلمانية والليبرالية، ومش معنى إن حد مُعارض إنه يبقى يساري.. تعليم إيه اللي اتعلّمتوه ده مش فاهمة!

والله مش فاكر بقى.. أنا كنت عيل، وماما كانت بتعيّط، وبتقول بنتي شيوعية.

– طب دي ماما..إنت بقى بغبغان..ثم هم لا كانوا هيتضايقوا ولا هيقلبوا الدنيا لو مكنش في شاب في الحدوته.. أخوك خاف على مركزه.

– ده الراجل اللي كان عايز يتجوزك.

– رئيس تحرير جرنان دلوقتي، ولسه معارض وعايش زي الفل ومراته صاحبتي كمان.. ساعات.. ساعات كده بحس إني لسه بحبه.

– والله اللي تتجوز حافظ.. مسموح لها تحب أي حد وأي حاجة.. ده إنتِ جبل يا شيخة.

– مش حافظ.. أو مش حافظ بالظبط..بس الصورة اللي محمد بيمثلها ليا.. بمكانته، شغله.. اهتماماته.. الحياه دي كان المفروض تبقى حياتي.. وكنت المفروض أبقى معاه بعمل كل ده دلوقتي.. إلى جانب إنه هو كمان لسه بيحبني.. متسألنيش عارفة إزاي.. بس إحساسي مبيخيبش.

– بس ده غلط.

ضحكت.. في البداية كانت ضحكتها سارة غير معبرة عن السعادة كما هي ابتسامتها لكنها لم تلبث أن تحوّلت إلى ضحك حقيقي، ولمعت عيناها، وكأنها تشجعت أن تصارحني بما هو أكثر، ولا أعلم لِمَ أنا ولِمَ الآن تحديدًا.

- وأنا عارفة..مرّات بيحاول يتصل على موبايلي.. يبعتلي حاجات كده في مسدج.. ساعات بفكر أرد عليها.

- وإيه اللي مانعك؟

- مش عارفة.. هو مش الضمير.. بس تقدر تقول.. الخوف.. الجموح اللي كان جوايا قتله حافظ.. بقيت بخاف حتى من التجديد.. أي تجديد أو تغيير بيرعبني.. أنا تسريحه شعري دي مغيّرتهاش من سنين.. يوم ما جابوني من محطة القطر متكتفه، وبابا الله يرحمه ضربني العلقة إياها، وجوزوني لحافظ.. دي كانت أكبر صدمة ممكن تكسر بنت عنيدة زيي.. بص كده عليه.. لايق أكتر إنه يبقى جوز أمك مش جوز بنتها.

- وعلشان كده بتعامليه بقسوة.

علشان بقى عجوز وضعيف، وعلشان يستاهل.. بس صدقني أو متصدقنيش.. بخاف أكسره، ومش عارفه لو حياتي اتغيّرت تاني من غيره هتبقى عامله إزاي.. بكتفي بأني على طول مش مريحاه.

- حرام واحده زيك تنتهي النهاية دي.

- ادعي للولد بقى يبقى حظه أحسن من حظ عمته.

وعندها برقت في ذهني فكرة.. مجنونة نعم، ولكنها صحيحة مئة بالمئة، وعندها تركت المرأة بجانبي، ودلفت إلى الصالة، وبينما باقي الحضور لا يزالون بين من يأكل الحلوى ومن ينتظر دوره لغسل يديه ناديت على مريم التي وقفت تلملم شتات نفسها في أحد الأركان.

- نعم يا خالو.

- اسبقيني على تحت من غير ما حد يحس بيكي.

وذهبت هي متفهمة أنني أنوي شيئًا ما، ولحقت بها وعماد في يدي غير عالم ما أنا بصدد فعله.

***

حينما فتح لي عربي الباب هذه المرة كانت تعبيراته تختلف كثيرًا عن تعبيراته أول الليلة.

- كنت فين يا أشرف.. موبايلاتكوا مقفولة والكل قلق عليكوا..

- ولا يهمك يا عم عربي..يالا يالا..روح حضرلنا عصير ولاّ شربات.

ودون تردد دخلت إلى حجرة المعيشة حيث كان الكل على استعداد للفتك بي، أمسكتعماد من يد،ومريم من اليد الأخرى وبمنتهى البساطة قلت:

- جماعة.. باركوا لعماد ومريم.. كتبوا كتابهم.

ضحكت أمي في تثاقل وفتحت ذراعيها لحفيديها اللذين جريا يحتميان بها، بينما دارت ثريا بيديها فمها في تعجب لا غضب، ناجي كان في حالة ذهول وأمسك حافظ بقلبه وروحه تكاد تزهق بين لحظة وأخرى.

- إيه ده؟ إيه اللي عملته ده يا متخلف؟

صرخت فيّ، لا في ابنتها.

- بنتك حامل.. اللي أنا عملته هو إني بصلّح الوضع.

توجّهت المرأة الغاضبة بنظرها إلى ابنتها، وأمسكتها من ذراعها بعنف بين الذهول والرفض والبكاء.

- اللي بيقوله خالك ده..حصل.

وخرجت أمي عن صمتها:

- سيبيها يا درية.

وتركتها درية وتوجهت نحو زوجها وقالت له بعنف:

- شايف..بنتك حامل يا بيه..نتك إتجوّزت.. قول حاجة.. مش وقت عيا وموت اتصرّف، وانت يا سي ناجي.. عاجبك اللي بيقوله أخوك؟

كان حافظ ممسكًا بكتفه اليسرى فعليًّا، وأنفاسه تكاد تنقطع، وهمت سلوى بالنطق مذهولة:

- عماد.. إنت فعلًا؟!

- ليه يا عماد؟ ليه؟ عملنالك إيه أنا، وعمتك علشان تعمل فينا كده؟

ظل الفتى صامتًا، يحاول أن يستجمع ردًّا بلا جدوى، وأكملت درية شجارها واضعة يديها على راسها مفكرة قبل أن تقول في النهاية متوجهة إليّ.

- إنت..إنت جوّزت إتنين عيال من غير شهادة، ولا شغل ولا فلوس ولا بيت.. انت ورّطتنا كلنا.

- بقولك البنت حامل.. أنا هاخدهم يعيشوا معايا.

وصمتت قليلًا قبل أن تقول:

- ماشي..ما دمت انت الأب الروحي للجوازة الفاشلة دي.. فانت مجبر تشغّل الواد ده.. مش هجوز بنتي لنكرة.

- أوعدك.

- والفرح.. الأسبوع الجاي يتعمل فرح.. هنا في بيت ماما.. نعزم فيه أهل أبو المدام.

قالتها في اشمئزاز مقرعة ابنتها.

- ماما.. أنا آسفة.

نطقت الفتاة لأول مرة منذ أتينا.

- مش عايزة أسمع صوتك ولا أشوف وشك.

وبدون أن تنظر نحونا نادت على عربي كي يساعد زوجها المغمى عليه في القيام، وتركتنا وذهبت، وعند الباب سمعنا صوتها تناديني.

- أشرف.

- نعم.

- خلّي البنت عندك في البيت.. خُد بالك منها.

وتركتني وذهبت بينما زوجها الكهل يترنح بجانبها.

- أتصل لك بالدكتور؟

- لا.. هفوّقه.. أنا هتصرّف..

هبطت درجتين فقط من السلم ومن ثم استدارت نحوي وأردفت.

- أشرف.. الولد مخدش حظ عمته.. أنا معتمد عليك..

- في إيه؟

- تحافظ على بنتي، وتعيش طول عمرك مسؤول عنها، أنا ماليش غيرها في الدنيا.

وحين عدت للحجرة كان جو من الوجوم يلف الجميع قبل أن تستقبلني سامية منفعلة:

- تافه، ونكرة وغبي.. إزاي تعمل حاجة زي دي..ده بدل ما تقولنا.. كنا ممكن نتصرف.. عيال طايشة، وتدبسهم إنت في جوازة.

عندها بدأت مريم في البكا، وحاول عماد الاعتراض.

- ماما.. كفاية.

- تعالي.. تعالي يا مريم على أوضتي.

وسحبتها ثريا في هدوء نحو حجرتها في الرواق وتركتنا حين أكملت أمي.

- أنا راضية عن اللي حصل.. عربي.. دخّلني أوضتي.

وقامت معها سامية غاضبة ولم تنسَ أن تصفق الباب في قوة.

– أشرف.. ممكن تسيبني مع عماد شوية.

وخرجت إلى الشرفة تاركًا ناجي وولده حيث لحقت بي ثريا مسرعة كانت تضحك، نظرت إليّ بتمعن قبل أن تُقبّلني قائلة:

– أنت أعظم إنسان ف الدنيا.. ورثت خُبث عيلتك كله..

– دا انت مبسوطه بقى!

– طبيعي أشمت في إخواتك الإتنين.. بس أنا حقيقي سعيدة.

– وتشمتي ليه أساسًا؟

نظرت إليّ، وقد لوت رقبتها بطريقة شعبية لا تتناسب مع وضعها الاجتماعي.. لطالما كانت ثريا مختلفة بحق عن الجميع.

– إنت نسيت جوازي ولا إيه؟ مش دول اللي كانوا بيعاملوني إني الوحشه.. العانس..العبء.. أخوك اللي جوّزني غصب عني، وأختك اللي مرضيتش تقف جنبي وقالت زيك زيي..أنا اللي كانوا بيخرّجوا فيّا عقدهم، وكبتهم.. علشان كده فرحانة لكن مش فيهم.. العيال مطلعوش سلبيين زيي.. مرضيوش يبقوا ماريونيت.. عملوا اللي مقدرتش طول عمري أعمله.. أخدوا موقف.

– هما راضوكي.

اعتدلت هذه المرة ورأيت فيها ملامح العظمة الذي تبعد عن عائلتنا في إبرازه.

– آه.. وشجعوني أقلدهم.. أنا هسيب البيت.. أنا هاجي أقعد معاك لحد ما ألاقي شقة وهعيش لوحدي بتكلم 3 لغات.. إيه مش هعرف ألاقي بيهم شغل.. اسمع أنا هحضّر شنطتي وهنزل معاك مع مريم..

– أشرف.. أنا معتمدة عليك.

– في إيه؟

– إنك تعلّمني، وتقويني.. تعرّفني إزاي أعتمد على نفسي.

تركتني في الشرفة إلى الداخل، وفوجئت بذاتي وقد سمعت جملتها الأخيرة اليوم أكثر مما ينبغي.. اليوم أنا مصدر ثقة الجميع، من الغريب ما تاول إليه الأشياء.. لقد بدأت تلك الليلة بأخ صغير مطرود من الأسرة يعود في زيارة لبيت أبيه بأسلوب (عودة الابن الضال) لتنتهي الليلة بي كشخص يثق به الجميع بل يعتمدون عليه كأنه رب الأسرة كي يوازنوا سقطات حياتهم ..

***

أبيلوج

حينما تتلاقى عيون الراقصين لأول مرة فإن لغة خاصة بينهم تبدأ في التشكل. من عايشوا الميلونجا لديهم السر في اكتشاف طبيعة شريك الرقص.. الرقص هو السلوك الإنساني الذي قد يفضح كل أسرارك رغم عنك.. تفصح عنها بجسدك مطمئنًا لإغلاق فمك، لكنك لا تعلم أن جسدك يقول الكثير، الآن وقد رقصنا معًا.. دعوني أخبركم أكثر عن أسراركم.

يقول الجسد إن من يبالغ في استخدام ذراعيه، إنما هو مغرور استعراضي.

يقول الجسد أن المراوغ هو من يتحرك بعصبية لا يدور، ولكنه يكثر من الالتفات.

يخبرنا الجسد أن الهادئ هو من يميل إلى سلاسة الحركة ويبتعد عن العنف.

أما المنفتحون، من تحرّروا من ماضيهم فأجسادهم تميل إلى جعل حركات الإيقاع رأسية صعودًا وهبوطًا.

وفقط المتهورين هم من تنفر منهم أجسادهم فيميلون إلى مد أيديهم وأرجلهم لمسافات أبعد من المقبول في الميلونجا الاجتماعية.

لا أذكر أنني استمتعت في يوم ما كما استمتعت في تلك الليلة..

تركنا فريدي تو أن انتهت الكومبارسيتا إلى الداخل وبهدوء تبادل الجميع التحية، وخرجوا أزواجًا وفرادى من البوابة، وددتُ أن أسأل:

- كيف تسللت زهرة إلى تلك المجموعة الراقية؟ هل هو الرقص ما رفع تقييمها الفردي لتنضم إلى تلك المجموعة؟ هل هم من أملوا قصصهم على فريدي ليكتبها؟ أم أن القصص تعبر عن مشاعر مختلطة اختارها فريدي لهم في أثناء تعليمهم؟ هل سيقبل فريدي اقتباسي لنظرته عن الحياة والرقص في كتاب عوضًا عن مجرد مقال بجريدة؟

حاولت سؤال استير لكنها وضعت سبابتها اليمنى على فمي حين هممت بالكلام.

- الميلونجا خلصت.. متسألش كتير بعدها.. روّح بيتك مُنتشي..

لا أدّعي نجاحي في الاختبار، وتحوّلي من نويفو ميراندو إلى ميلونجيرو.. لكني أعلم أن اعتذارًا لائقًا قد كُتب بيدي في صفحات جريدتي وعلى بوابتها الإلكترونية ل "مرجوشي دانس هاوس" مع شكر خاص ل فريدي مرجوشي واستريد كهالو لدعوتي لليلة استثنائية.. فريدي مرجوشي قابلني

(مصادفة) مرتان أخريان استاذنته في الأخيرة أن أنقل لكم تجربتي الأولى والأخيرة في الميلونجا عبر هذا الكتاب.. وافق مشكورًا وغيَّر رقم هاتفه الخاص بعدها.. مرجوشي دانس هاوس ما زال موجودًا قائمًا كعالم يطل على مشاعرنا ويعبر عنها.. قليلون هم من يستطيعون أن يعبروا السور إلى الداخل فيعبرون كما يعبر الميلونجيون لديه..

أقتبس من كلماته أخيرًا:

إذا استطعنا يومًا ما إن نُلخص الحب، الرجل والمرأة، العلاقة بينهما.. فيجب أن تدخل كل المعاني العميقة إلى القاموس تحت اسم واحد.. تانجو، كفن شامل ومُركّب، فإن التانجو يُمثّل عدة أشياء كثيرة ومختلفة باختلاف الناس ذواتهم،كل منا يفهم التانجو بشكل مختلف.. كل منا يرى التانجو بعمق مغاير..كل منا إما يرقصه أو يود حقًا لو يرقصه. إما أن يشعر مشاعر التانجو أو يود حقًا لو يستطيع شعوره والتعبير عنه بقوة العاطفة الكامنة به.

حافظوا على المسافة بينكم.. لا تبتعدوا كثيرًا فتفقدوا التواصل، ولا تقتربوا جدًّا فتتعثروا في أثناء الرقص، وتذكروا دائمًا الميلونجا القادمة وحيواتكم المفتوحة أمامكم ومليئة بالفرص.. سلامتكِ أمر منوط به هو من عليه حمايتكِ من الوقوع أو الانزلاق..اندماجك هو أمر منوط بها استجابتها لقيادتك هو ما يعطيك دافعًا للاستمرار.

الآن..تنتهي الميلونجا.. عودوا جميعًا إلى دياركم منتشين.

يمكنكم الاستماع إلى موسيقى العمل على:

https://soundcloud.com/ahmed-tage/sets/milonga

أو متابعته عبر فيسبوك

(Milonga -ميلونجا)

